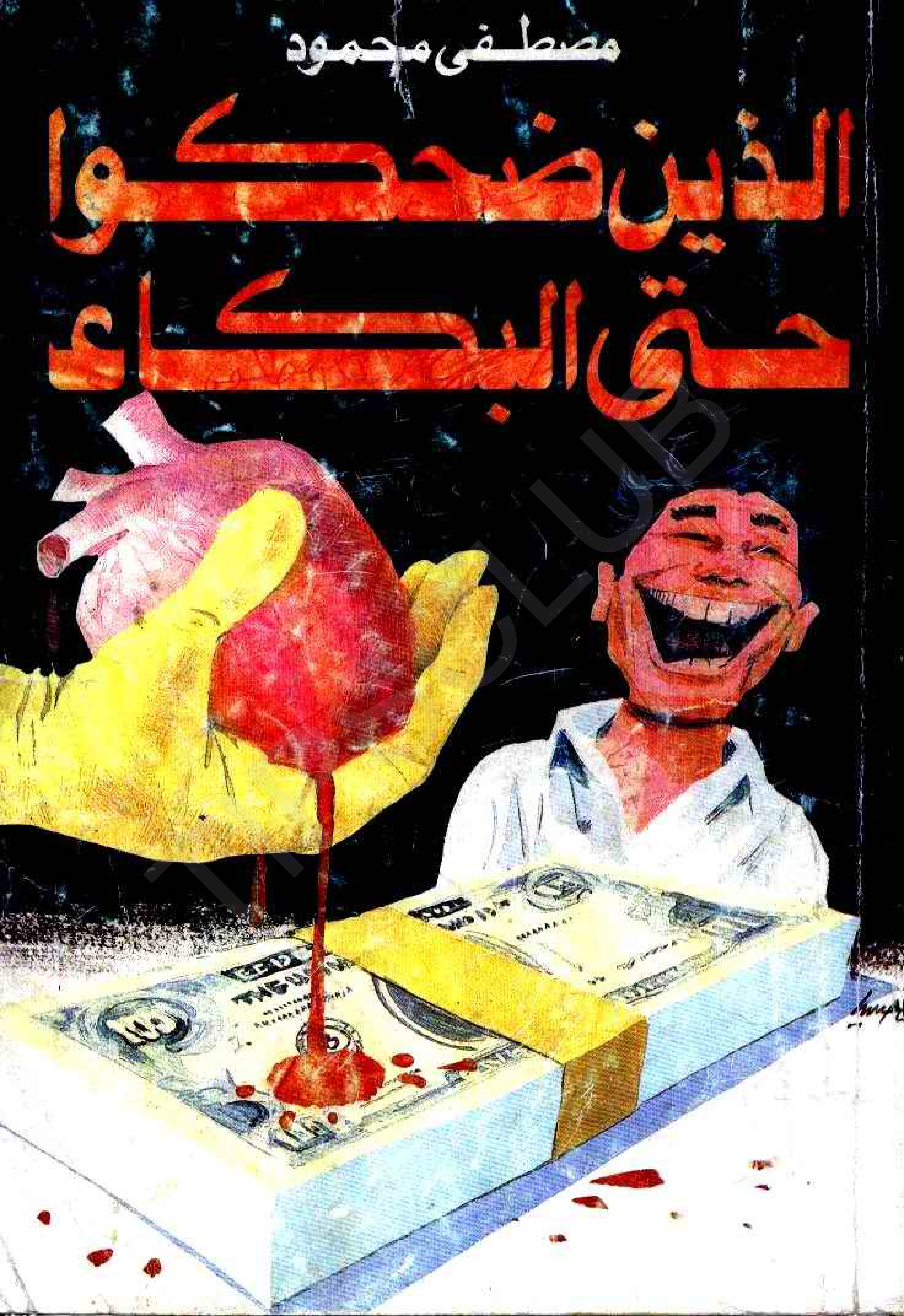

مصطفى محمود
الذين ضحكوا
حتى البكاء

الذين ضحكوا حتى البكاء

قتيـــل بـــدون قـــاتل

كان برد الليل قارصا .. وشارع سليمان باشا يبدو مهجورا بالرغم من الفاترينات المضيئة المتلالئة على جانبيه .. وقد تجاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل .. والأسفلت يلمع من أثر مطر خفيف مازال ينزل .

شيء واحد كان يقطع ذلك السكون الرطب بين لحظة واخرى .. طرقات قدم ثقيلة تمشى خطوات ثم تتوقف ، وأمام فاترينة خمور مضيئة كنا نرى رجلا نحيلا فى معطف يدور بعينيه خلف الزجاج وكأنه يبحث عن شيء .. ويتنقل بين المارتين .. والشيرى .. والبراندى والسكوتش .. والنكتار .. والفودكا .. يحملق فى الزجاجات بعين قلقة فاحصة .

●●●

ويخيل الينا من وقفته الطويلة المحملقة أننا امام سكير عتيق .. ولكنه مايلبث أن يضع يديه فى جيب معطفه ويمضى فى هدوء .. يخب فى طريقه ليتوقف بعد خطوات أمام فاترينة مجوهرات .

وبنفس النظرة الباحثة نراه يتجول فى فضول بين فصوص السوليتير والساعات المطعمة بالماس وأساور الذهب والبلاتين وأقراط الزمرد والياقوت .

نظرة لص على وشك أن يخرج سكينه الماسية ليشق بها زجاج الفترينة .

ولكن الرجل يخيب آمالنا .. وينطلق فى طريقه فى لا مبالاة واضحة ليقف من جديد أمام فاترينة ملابس داخلية للسيدات ليحملق فى كل قطعة ثياب وكأنه يتخيل ما تحتويه .. ثم يميل بنظرة حادة يتأمل ذلك الفستان الشفاف الهفاف الذى يمكن أن يطوى ويوضع فى علبة ثقاب .

ترى أية افكار كانت وراء هذه النظرة الحادة المحملقة .. ؟

إنها أفكار غريبة ولا شك.

فالرجل لم يكن فى الواقع يرى ما تقع عليه عيناه .. لم ير زجاجة واحدة من زجاجات المارتينى والشيرى ، ولم ير فصا واحدا من تلك الفصوص السوليتير الثمينة ، ولم ير ذلك الفستان الشفاف الهفاف الذى يمكن أن يطوى فى علبة ثقاب .

وهو لم يكن أعمى .

ولكنه كان شاردا .

كان ينظر فى شرود الى كل شىء .

وكان ما يجرى فى ذهنه شيئا آخر تماما .

كانت أفكاره تدور حول نقطة واحدة هى تاجر الموبيليا «منصور الجبيلى» ذلك الرجل السمين الوقح .. هكذا يقول عنه فى خياله .

والرجل السمين الوقح هو صاحب ثلاث عمارات غير نصف مليون جنيه من النقد السائل فى البنوك والأسهم والأراضى موزعة بشكل لا يجرى تحت أى بند من بنود المصادرة فى القوانين الاشتراكية .

والرجل الأصلع الذكى منصور الجبيلى الذى بدأ حياته بائع روبابيكيا يدفع عربة يد ويشترى السراويل القديمة والزجاجات الفارغة قد وصل الى هذه الدرجة من الثراء فى سنوات قليلة .

واذا كان عصر المعجزات قد انتهى .. فإن العقل ليسأل .. كيف ؟

كيف أصبح بائع الروبابيكيا مليونيرا فى سنوات . ؟

وتنتقل أفكار صاحبنا من منصور الجبيلى الى فتحى وسيد وابراهيم الجبيلى .

وفتحى تاجر عطور فى الموسكى ، وسيد صاحب مكتب تخديم فى شارع محمد على ، وابراهيم صاحب مكتب النجمة للسفريات بشارع الأزهر .

وصاحب مكتب النجمة هذا يركب كاديلاك وله فيللا شتوية فى حلوان وفيللا صيفية فى مرسى مطروح ويمتلك عزبة فاكهة فى الفيوم .

هل يمكن أن يكسب مكتب للسفريات يسير ثلاث عربات تاكسى على خط السلوم مرسى مطروح القاهرة .. كل هذا الدخل .

أسئلة لا تنتهى يثيرها دائما التفكير فى عائلة الجبيلى .. وفى عميدها الأصلع الذكى الذى ينظر بعينين ضيقتين من وراء منظار سميك .. ويضع ساقا على ساق أمام دكانه .. ولا يفعل شيئا سوى أن يدخن النارجيلة فى هدوء .

وهى أسئلة ما كانت لتبدأ فى ذهن صاحبنا لولا ذلك الاهتمام الحاد الذى نشأ بينه وبين كوثر .. زوجة منصور الجبيلى .

كوثر التركية النحيلة كغزال شارد .. البيضاء البللورية كأنها تتغذى من الضياء .. ذات العينين الواسعتين الحزينتين والأهداب السود والشفتين الحمراوين كحبتى كرز .. والخصر النحيل الذى تحيط به أصابع الكف .. كف منصور الجبيلى ولا شك كل ليلة .

ومن عجب أن يسيطر عليها ذلك الرجل الداهية كل هذه السيطرة وهى بنت العشرين وهو ابن الخمسين .. بفارق ثلاثين عاما وأمها التركية سعادات هانم التى تعيش معهم .. لتسافر فى رحلات قصيرة الى تركيا بين شهر وآخر .

لماذا تترك سعادات هانم أولادها وزوجها فى استانبول لتعيش فى القاهرة مع منصور الجبيلى طول الوقت .

وسعادات هانم فى الخامسة والثلاثين فى أوج انوثتها تمشى سهتانة النظرات صامتة مفترة الثغر وقد تباعد مابين شفتيها لتبدو فلجات أسنانها البيضاء .

تلك الظلال الحسية المثيرة التى تحيط بتلك المرأة .. والهالات القائمة تحت عينيها والنظرات المحمرة من السهر والأجفان الناعسة والأرداف

الثقيلة والمشية الانثوية المسترخية وخصلة شعر مفكوك على جبهتها تترنح على عينيها .. ونسمة عطر شرقى حاد تسبقها .

وذلك الاحساس الذى يشعر به كلما وضع يده فى يدها ليسلم عليها ، إن يدها دائما دافئة .. وكأنها محمومة على الدوام .. وعروقها كلها تنبض .

تلك المرأة .

ما من مرة دخل بيت منصور الجبيلى إلا اشتعل رغبة واشتعل نفورا فى نفس الوقت من سعادات هانم .. وما من مرة صافحها واشتمل على يده كفها البض الدافىء إلا أحمر خجلا .

ويعكس الأم .. الإبنة .. الفراشة المجنحة التى اسمها كوثر .. تكاد لا تمس الارض وهى تمشى ، وتكاد تقع وتتكسر كقطعة بسكوت هشة ، وتكاد تذوب فى اليد كما تذوب فتفوتة سكر .

والنداء الأخرس فى عينيها .

انها لم تفتح فمها بشكوى .. [illegible] بعاطفة .. ولكن عيناها الثرثارتان البليغتان تحرمانه النوم .

كم يحبها .

انه يعترف بينه وبين نفسه أنه يتمنى أن يموت منصور الجبيلى .

لا . بل أنه يود لو يقتله .

عيناها الساهمتان تقولان له :

أقتله .. وخذنى .

أنا لك

أنا امرأتك .

هل هو هذيان ليل . ؟

إن عابر السبيل بشارع سليمان باشا .. الرجل النحيل الذى تتشنج يداه فى جيوب معطفه .. الأستاذ مراد بدوى يكاد بالفعل يهذى وهو يتخيل كوثر ويفكر فيها .

ألم أقل لك أنه لم ير شيئا واحدا فى تلك الفاترينات العديدة التى توقف ليحملق فى محتوياتها .. لم ير إلا وجها واحدا يطل عليه فى كل فترينة وهو

وجه كوثر ، ومن ورائه يقف منصور الجبيلى يرنو اليه بعينين قاسيتين ، بينما تسوى امرأة شعرها وتمد له يدا بضة دافئة هى سعادات هانم ويمرق ابراهيم الجبيلى بعربته الكاديلاك فى طرف الكادر ويبدو له وجه فتحى الجبيلى غارقا فى زجاجات العطر .. وعلى البعد يافطة كبيرة مكتوب عليها سيد الجبيلى .. مكتب تخديم .

ولابد أن وقفاته طالت .. لأنه حينما بدأ فى طريق العودة كانت الساعة قد جاوزت الثالثة .

وعلى رأس الشارع الذى يسكن فيه ، تجمدت الدماء فى عروقه ، وتثلجت أطرافه وهو يسمع صرخة مدوية ويرى أنوار الشقة التى يسكن فيها منصور الجبيلى كلها مضاءة وعربة بوليس النجدة على الباب .

وصعد السلم قفزا .

ودخل من الباب المفتوح الى حيث يقف الضابط أمام رجل مطروح على ظهره وقد انحنى الطبيب يفحصه .

واعتدل الطبيب ليقول فى صوت هادىء :

- حالة وفاة بسم السيانور .

وأردف مشيرا الى وجه الميت :

- هذه حالة التسمم الوحيدة التى تؤدى الى مثل هذا الوجه المتورد بعد الموت .

وكان الميت الممدد على الأرض هو منصور الجبيلى نفسه وكانت كوثر واقفة ترتجف يسندها من ذراعيها فتحى وسيد الجبيلى .

وكانت سعادات هانم مغمى عليها .

وقالت كوثر أن زوجها انهار بين ذراعيها فجأة بعد أن شرب كأس البراندى .. وهى الكأس الوحيدة التى يشربها عادة على العشاء .

- هل حدث هذا فورا بعد الكأس .

سألها الطبيب .

فأجابت أنه حدث بعد دقائق من شربه الكأس .

وأشار الطبيب الى زجاجة البراندى ليضعها الضابط بين أحرازه .

وانهمك الضابط يجمع كل ما على مائدة العشاء من أطعمة ولم ينس الخبز والزبد ودورق الماء والسرفيس .

ثم دخل غرفة المكتب وانحنى على كل درج يجمع ما فيه من أوراق .. ورقة ورقة .

هل هو حادث قتل .. أم انتحار .

ولماذا ينتحر منصور الجبيلي .

واذا كان قتلا فمن القاتل .. وما دوافعه .

كان مراد بدوى يفكر بسرعة فى مزيج غريب من الذهول والفرح الخبيث .. مات منصور الجبيلي .

هكذا فجأة .

ياله من خبر سوف ينشر بالعناوين الحمراء فى الأعمدة الأولى من الصحف غدا .

مات منصور الجبيلي مسموما .

ياله من خبر سار .

لقد أعفاه القدر من الجريمة التى كان يحلم بها .. وتطوع قاتل مجهول - بوركت يده - بأن ينتزع هذه الروح البغيضة من بين اضعلها .

لم يعد هناك مايحول بينه وبين كوثر .

سوف تنطق أخيرا وتقول له أحبك .. كنت أنتظرك طول عمرى .. تعال الى . ذهب الكابوس .. لم يعد هناك ما يفرق بيننا .

وقطعت هذه الخيالات الوردية يد .. يد غليظة .. هبطت على كتف مراد . هى يد الضابط .

حضرتك مراد بدوى صديق الميت .

وأفاق مراد فجأة كأنما صب على رأسه ماء مثلج .

نعم .. أيوه . أنا مراد .

- سعادات هانم قالت أنك أنت الذى قدمت السيانور للمرحوم لتطهير أشجار الفاكهة .

- أيوه .. نعم .. آه .

وغمره الاضطراب .

لقد نسى أنه مورد السيانور الوحيد .. هو .. الصيدلى مراد بدوى .. وتمالك أعصابه ليقول فى دهشة .

- أيوه يافندم .. أنا أعطيته السيانور كمطهر حشرى .

- وكنت تعرف أنها مادة سامة .

- يافندم .. السيانور مادة متداولة .. وكل تفاتيش الزراعة تطلبها منا .. وانا أبيعها كما أبيع الـ د . د . ت وبوليس النجدة وصبغة اليود والسليمانى .. وكلها مواد سامة وخطرها معروف .. وأنا غير مسئول إذا استعملها أحد عملائى فى قتل نفسه ولم يستعملها فى غرضها الطبيعى .

- لماذا تحمل نفسك مسئولية موته .. أنا لم أقل انك مسئول .. أنا سألت لمجرد الاستفسار .. ثم على أى أساس تصورت أنه قتل نفسه وأن الحادث انتحار ؟! .

- مجرد خاطر .

- غريب أن يخطر لك هذا الخاطر .

- لم أتصور أنه يمكن أن يكون له عدو .

- هل أنت محيط بحياته لهذه الدرجة ؟ .

وسكت مراد ولم يعرف كيف يجيب .

ثم قال بعدلحظة صمت وكأنه يعتذر :

- على قدر علمى .

ونظر اليه الضابط طويلا .. ثم طوى الأحراز التى جمعها وأودعها عدة مظاريف وصناديق ثم ختمها بالشمع الأحمر .

وكانت هناك ستة عيون تحملق فى مراد طول الوقت .. هى عيون ابراهيم وفتحى وسيد الجبيلي .

وفى الصباح كان ينتظر مراد .. عسكرى .. ليطلبه فى النيابة .. وأمام المحقق جلس مراد متوترا يدق الأرض بقدمه طول الوقت ..

- أستاذ بدوى فيه بينك وبين كوثر علاقة ؟ .

- لا .. أبدا .. اطلاقا .. مستحيل .

- تنكر أن هذا الجواب بخطك ؟ .

وقرأ مراد السطور التى تتراقص أمام عينيه .

أحبك .. أعبدك .. اتمنى اليوم الذى يزول فيه من حياتنا الكابوس .. لو قلت لى أقتله لقتلته .. انى أفعل أى شىء من أجلك ، بل انى لأفعله من أجلى أنا .

كانت هى نفس السطور التى كتبها بخط يده .
وتراخى فجأة فى يأس .
ولكنه ما لبث أن صرخ .
ـ ولكنى لم أقتله .. أبدا .. أبدا .. لم اقتله .

●●●

وكانت نتائج التحليل الكيميائى مفاجأة .
جميع العينات المأخوذة من طعام منصور الجبيلى خالية من أى أثر للسيانور حتى كأس البراندى وهو آخر ما تناوله .
والقت النتائج ظلالا من الشك حول الطريقة التى مات بها .
فاذا كان قد مات مسموما بالسيانور .. واذا كان لم يتناول هذا السيانور فى الطعام .. فكيف اذن تناوله .
واذا كانت الوفاة حدثت بعد كأس البراندى بدقائق كما قالت الزوجة .. مع العلم بان كأس البراندى خالية من أى أثر للسم .. فكيف حدثت الوفاة .
أم أن شهادة الزوجة كانت شهادة مختلقة مضللة ؟!.
ومامصلحتها .
إنها طرف ثان منتفع بموته ربما ..
هكذا كان يسير التحقيق ليتعثر فى طرق وحوارى مسدودة .. تؤدى جميعها الى علامات استفهام .

● ● ●

وفى الغرفة ١١٦ بفندق الغردقة .. كان يوجد نزيلان .. وكانا فى تلك اللحظة فى عرض البحر فى رحلة صيد .
وفى اللنش البخارى كان يجلس الرجل يعطينا ظهره .. والى جواره امرأة ونحن نعرف المرأة ولاشك .
نعرف تلك الاستدارات الانثوية .. والارداف الثقيلة .. والشفتين اللتين تفتران فى استرخاء .. والعينين السهتانتين والكف البضة الدافئة المطبقة على سنارة الصيد .
انها سعادات هانم ولاشك .

والرجل هو ابراهيم الجبيلى .
وهما وحدهما فى اللنش فى عرض البحر وقد ابتعدا عن الفندق بمئات الأميال ولم يعد يظهر حولهما إلا أفق أسود وسماء ترصعها النجوم .
ولا صوت سوى وشوشات الموج .
وتصاعدت رائحة العطر الشرقى الحاد من حيث تجلس سعادات .
وتحركت أنف الرجل تتشمم هذه الموجة من العطر . وتتبعها من ينابيعها .
وكبت فى نفسه رغبة عارضة .
ثم قال فى صوت ممرور .
ـ سعادات .. أنت كنت تحبين منصور .
ـ انها قصة انتهت .. فما الداعى الى بعثها .
ـ أريد أن اعرف الحقيقة .
أى حقيقة .
ـ حقيقة قلبك .
ـ انا نفسى لا أعرف حقيقة قلبى .
ونظرت اليه بعينين نائمتين .. وأخذت يده تمسحها بين كفيها هامسة لماذا لا نكف عن التفكير ونستسلم للواقع .
ـ أى واقع .
ـ اننا معا أخيرا .
ـ ان شبحه يطاردنا نحن الاثنين فى كل مكان وفى كل خلوة .
ـ ولماذا يزعجك شبحه .. هل أنت الذى قتلته .
وانتفض ابراهيم .
ـ أنا .. وهل خطر بذهنك انى يمكن ان أكون القاتل ؟
ـ انه مجرد كلام .. لماذا تنتفض هكذا .. انى لست ضابط بوليس ..
ـ مستحيل .
ـ ماذا هو المستحيل .
ـ ان يخطر بذهنك انى قاتل .. وقاتل من ؟ قاتل أخى .
ـ ان قابيل فعلها .. قتل أخاه من أجل امرأة . وأنت قتلت أخاك من أجلى .

وصرخ ابراهيم فى استنكار .
ـ أنت امرأة عاهرة .
وضحكت سعادات .. وظلت تضحك حتى طفرت من عينيها الدموع ثم نظرت اليه نظرة طويلة فاحصة وكأنها تريد أن تفتح قلبه وترى مافيه .. ثم قالت فى هدوء :
ـ حسنا لننسى الموضوع .
ولكنهما فى الواقع لم ينسيا الموضوع وان تظاهرا بذلك .
وتشعب الكلام بينهما الى عدة موضوعات .. الجو . والصيد .. والبحر وكوثر .. ومراد بدوى .. وشركة النجمة للسفريات .. ولكن كلاهما ظل مشغول البال بشيء آخر .. هو مقتل منصور .
وكانت هى تنظر اليه فى ارتياب وهو ينظر اليها فى شك .
وحينما عادا الى غرفتهما فى ساعة متأخرة من الليل انفجر الموضوع بينهما مرة أخرى فى شدة وعنف .. وأمسك بها ابراهيم فى ثورة وراح يهزها فى هياج .
ـ أريد أن أعرف الحقيقة .. أريد أن أعرف الحقيقة .. قولى انك القاتلة .. قولى انك قتلته .
وتشبثت هى بكتفيه لتصرخ .
ـ أنت تعلم أنى لم أقتله . وأنى لا يمكن أن أقتله .. وأنى أحبه ..
ـ ولهذا قتلته .. لانك تحبينه .. قتلته غيرة .. اعترفى ..
ـ ولماذا لاتعترف أنت .. لماذا لاتقول انه اشتراك .. اشترى ضميرك واشترى ذمتك .. واشترى .
وصفعها ابراهيم .
وانهارت تبكى وتتشنج .
وانهار هو الى جوارها يقبل أطراف أناملها .
وما لبثت الحقيقة أن ضاعت بين الاثنين .
والى جوارهما كانت هناك حقيبة كبيرة عادا بها من البحر .
وكان فى الحقيبة كل ما اصطاداه فى رحلتهما الليلية .

● ● ●

محل عطور فتحى الجبيلى بالموسكى ملحق به معمل تقطير مرخص به شأن كل محلات العطور الكبيرة .
واللافت للنظر فى هذا المعمل أنه معمل كبير مزود بأحدث الأدوات والتجهيزات الفنية .. والعين تعجب وهى تدور بين هذه الأدوات المعقدة .. كيف يمكن أن يحتاج تقطير ماء الورد الى كل هذه الأدوات .
أن الأنبيق العادى يكفى لهذه العملية البسيطة .
ما الحاجة الى أمثال هذه المعوجات والمكثفات والمحاليل الكيميائية العديدة .
ولماذا انفردت محلات الجبيلى بفرن زجاج لانتاج الزجاجات الخاصة بها .
ان الانتاج الرئيسى الذى تعتمد عليه وهو «روائح الجبيلى» بتوزيعه المحدود ورواجه المحدود فى السوق لا يغطى كل هذه التكاليف الباهظة فى الانتاج .. وحتى اذا حسبنا ارباح مصنع الزجاج بما يورده للسوق من زجاجات فارغة لا نخرج بتفسير كاف لكل هذه الأرباح الطائلة التى تدخل جيب فتحى الجبيلى .
كانت كوثر واقفة فى فستان أسود مقفول تحادث فتحى الجبيلى فى صوت خافت .. وكان هو طول الوقت ينظر الى رقبتها البيضاء العاجية ويقول فى صوت شغوف :
ـ أنا أقوم بتركيب عطر جديد سوف يغزو الأسواق .. سوف يكون قنبلة .. هل تعرفين ماذا نويت أن أسميه .
ـ كولونيا سعادات طبعا .
ـ لا .. سوف أسميه .. كوثر .
ـ أشكرك .
ـ كوثر . لا داعى لهذا الاسلوب المتكلف فى الكلام .. أنت تعرفين ما أعنى .
ـ أنا لا أعرف شيئا .
ـ أنت تعرفين انى احبك .. وأنى كنت أنتظر هذا اليوم طول عمرى .

ـ ليس من اللائق أن تقول هذا الكلام عن أخيك ولم تكد تمضي أيام على وفاته .
ـ لقد أخذ من الدنيا أكثر مما يستحق .. لقد أخذ كل شيء .. الثروة والحظ وأنت وسعادات .. ماذا كان يريد أن يصيب من الدنيا أكثر من هذا .
ـ انه خرج بلا شيء على أى حال .
ـ كلنا سوف نخرج منها بلا شيء .
واقترب منها ليهمس فى قلق .
ـ أنا أعرف أنك تحبين مراد بدوى .. ولكنه قاتل .
ـ انه ليس قاتلا .
ـ لقد اتهمته النيابة .
ـ تستطيع النيابة أن تتهمه كما تشاء ولكنه لم يقتل .. هذه هى الحقيقة .
ـ وهل تعرفين الحقيقة ؟
ـ أنى أعرف فقط أنه لم يقتل زوجى .
ـ واذا لم يكن قاتلا فهو مجنون .
ـ مجنون .. ؟
ـ نعم انه مجنون .. أنه مدمن سيكونال .
ـ سيكونال .. ماهو ذلك السيكونال .. إنى أذكر هذا الاسم .
ـ سيكونال .. اسمه سيكونال .. عقار مخدر ينتهى بمدمنيه الى مستشفيات الأمراض العقلية .
ـ نعم تذكرت الآن أنه أخرج مرة زجاجة من جيبه بهذا الاسم وابتلع منها قرصا وقال انه يتعاطاه لينسانى ولينسى عذابه .. وانه سوف ينتهى به الى مستشفى المجاذيب .
ـ أرأيت اذن نهاية الطريق الذى تسيرين فيه .
ـ ولكن كيف يفعل هذا وهو صيدلى يعلم عواقب فعله .
ـ ان السكير يعلم أن الخمر سوف تؤدى به الى حتفه ومع ذلك يشربها .
ـ اننا لا نعيش بعقولنا وحدها .

ـ نعم وهذا هو ما أحبه فيه . انه رجل يعيش الحياة بجماع قلبه .. يعيشها بلا عقل . على نقيض زوجى .. وعلى نقيضكم جميعا .. فأنتم ياعائلة الجبيلى لا تحرككم إلا لذة عاجلة أو مصلحة مضمونة .. انكم تعيشون بعقولكم فقط .. ألا يبدو هذا فظيعا .
ـ اننا لن نذهب بك الى مستشفى المجاذيب على أى حال .
فأجابت وهى شاردة :
ـ ربما ذهبتم بى الى مكان أسوأ .
ـ الى مكان أسوأ ..؟ ماذا تعنين .
ـ الى السجن مثلا .
ـ الى السجن .
وقهقة الجبيلى .
ـ ان مزاجك منحرف هذا الصباح .. وأفكارك سوداء أكثر من اللازم .. ما الذى يجعلك تفكرين فى السجن .
ونظرت كوثر فى آلية الى ركن فى المعمل حيث تستقر حقيبة كبيرة هى نفس الحقيبة التى عاد بها ابراهيم وسعادات من رحلة الصيد الليلية فى الغردقة ولم تجب .
وظهر القلق على عينى الجبيلى .
وقطعت كوثر أفكاره القلقة لتقول بصوت مرتفع :
ـ هل السيكونال هذا يعطى لعلاج الأرق .
ـ نعم أنه يعطى لعلاج الأرق الحاد .. ولم السؤال ؟
ـ انه مجرد سؤال عبر ذهنى .
اتعرفين ان مراد بلغ به ادمان السيكونال حدا جعله يملأ زجاجة السيكونال أمامه بالسيانور ليذكر نفسه دائما بأنه يتعامل مع سم قتال وانه ينتحر باستمراره فى تعاطيه .. تماما كما يضع الصيادلة بطاقة عليها جمجمة وعظمتين على العقاقير الخطرة .
قال هذا وهو يبتسم . اما كوثر فقد شحب لونها فجأة وتمتمت بشفتين مرتجفتين :

ـ ملأ زجاجة السيكونال بالسيانور . . تقول ملأ زجاجة السيكونال بالسيانور. فقال الجبيلي فى دهشة :

ـ نعم . . وماذا فى هذا . . ماذا جرى لك . . انت تتطوحين .

وألقى بذراعيه ليضمها قبل أن تقع من طولها .

كان جبينها ينضح بحبات العرق ، وقلبها يدق كالطبل الى جوار قلبه . . ومسح على جبينها فى حنان وهو يهمس :

ـ ماذا جرى لك ؟

وتمالكت نفسها لتقول فى ضعف :

ـ لا شيء . انه دوار يلم بى أحيانا .

ـ سأوصلك الى البيت .

ـ لا . . أرجوك . . سوف أعود وحدى . . لقد أفقت تماما . . أشكرك . . وانطلقت مسرعة لتقود عربتها الجاجوار عائدة الى البيت . . ولتصعد السلم قفزا . . ولتدخل شقتها كالسهم الى غرفة النوم ولتفتح الأجزخانة الصغيرة فى الركن وتلتقط زجاجة مكتوب عليها سيكونال . . تحملق فيها لحظة فى رعب ثم تطوحها بأقصى قوتها من النافذة لتستقر فى قاع النيل . . ثم تنهار على الكرسى الوثير فى الغرفة وتتنفس الصعداء .

★★★

كان المحقق يضع أمامه أمبول زجاجية ويقول للمفتش وهو يلوح بها فى الضوء :

ـ هذه الأمبولة الصغيرة سوف تحكى لنا كل القصة .

ـ أى قصة ؟

ـ قصة عائلة الجبيلي كلها .

ـ انا لا أفهم .

ـ هذه أمبولة مورفين عثر عليها بين الأشياء التى أسفر عنها التفتيش فى بيت القتيل .

ـ وأى غرابة فى وجود أمبولة مورفين عند رجل مثل منصور الجبيلي مصاب بالتهاب مزمن فى الكلى ويعاوده المغص الكلوى بين حين وآخر ؟

ـ ليست هناك أية غرابة فى أن يقتنى منصور الجبيلي أمبولة مورفين . .

ولكن الغرابة كل الغرابة أن يتضح أن هذه الأمبولة لا تشبه أى أمبولة مورفين مستوردة أو مصنعة محليا .

ـ أنا لا أفهم .

ـ سوف تفهم إذا قلت لك أن زجاج هذه الأمبولة لايطابق كيميائيا أى خلطة زجاج من الذى نصنعه عندنا أو نستورده من الخارج . وأنها تطابق خلطة واحدة هى التى يصنع منها الفرن الخاص بفتحى الجبيلي زجاجاته .

وقفز المفتش من كرسيه هاتفا :

فتحى الجبيلي صاحب مصنع العطور .

هذه هى الواجهة التى يختفى وراءها . . يصنع العطور وزجاجات الروائح فى الظاهر . . وفى الحقيقة يدير معملا لاستخلاص وتعبئة أمبولات المورفين . .

ـ ومن أين له بالخامات اللازمة لاستخلاص المورفين . . من أين له بالأفيون ؟

ـ هنا يأتى دور الأخ العزيز ابراهيم الجبيلي صاحب مكتب النجمة للسفريات . . يسير تاكسيات على خط السلوم القاهرة لينقل الركاب فى الظاهر وفى الحقيقة ينقل الأفيون المهرب من الساحل من الصحراء . . فاذا تعذر التهريب عن هذه الطرق . . فإنه يظهر فى فندق شيراتون الغردقة ومعه أدوات صيد السمك كأى سائح ويستقل لنشا خاصا يخرج به تحت جنح الظلام ليتلقى البضاعة المهربة من سيناء ويعود بها فى حقيبة كبيرة على انها السمك الذى اصطاده .

وكيف يتم توزيع هذا السيل من المخدرات ؟

ـ هذا دور الأخ الثالث سيد الجبيلي صاحب مكتب التخديم فى شارع محمد على . . فى هذا المكتب يجتمع الصبيان والصبيات بين سن العاشرة والعشرين تحت يافطة بريئة ويتم توزيعهم على بيوت العملاء كخدم .

ـ هذا تنظيم جهنمى . . ولكن ماهو دور سعادات هانم ؟

ـ سعادات هانم بجواز سفرها التركى تسافر بين شهر وآخر الى تركيا وايران واسرائيل لتقوم بدور همزة الوصل بين عصابة التهريب المحلية وبين شبكة التهريب العالمية . . ولأنها شريكة بحق النصف فى العملية . فإنها

تخرج كل مرة ومعها نصيبها من الارباح سبائك ذهبية توردها الى بنوك ايران واسرائيل . . وبهذا يتحقق الهدف المرسوم بحذافيره . . التخريب ونزح الثروة القومية أولا بأول .

ـ هذا فظيع . . ولكنى لم أفهم بعد سر مقتل منصور الجبيلى .

ـ حادث مقتل منصور الجبيلى هو حادث فريد من نوعه . . فهوقتل بدون قاتل وجريمة بدون فاعل .

ـ هذه مسألة تحتاج الى شرح .

ـ ان مراد بدوى الصيدلى الذى تدله بكوثر حبا لدرجة العبادة كان يتعاطى السيكونال . . وبانحداره التدريجى مع حالة الادمان التى أشفت به على الجنون وحتى لا يمد يده الى المخدر . . كان يملأ زجاجة المخدر بالسيانور القاتل ليذكر نفسه بالمصير الحتمى الذى ينتظره . . وحينما جاءته كوثر ذات مساء تطلب منه منوما قويا . . أعطاها دون أن يدرى زجاجة السيكونال المليئة بالسيانور . . وهى بدورها أعطت منها قرصا لزوجها دون أن تدرى .

ـ ولماذا لاتقول أنه أعطاها الزجاجة وهو يعلم أنها سوف تعطى منها لزوجها وأنه بهذا سوف يتخلص من غريمه ؟

ـ انه لم يكن يعلم اطلاقا انها سوف تستعملها لزوجها . . وهى بدورها كتمت غرضها لأنها كانت فى تلك الليلة تريد أن ترسل زوجها الى الفراش لينام مبكرا بينما تنسل هى فى مغامرة من مغامراتها الليلية .

ـ ربما ارشده عقله الباطن . . كعادة المخدرين الذين يعيشون فى نصف غيبوبة يفكرون دائما بعقولهم الباطنة .

ـ ان هذا ينقل الجريمة من جريمة سبق الترصد والعمد الى جريمة اللاوعى . . وهى جريمة لا تقع فى اختصاص القضاء . . وانما تقع فى اختصاص الله عز وجل الذى يحاكم بالنوايا الباطنة قبل الافعال .

ـ هذه حادثة أغرب من الخيال .

واطلق المفتش دخان سيجارته وغاب لحظة فى التفكير ثم قال :

ـ ولكن من تظن الرأس المدبر لكل هذا .

انها آخر من تتوقع . . انها الملاك المجنح الرقيق كوثر .

ـ بنت سعادات .

ـ انها ليست بنت سعادات . . انها ممثلة وراقصة كباريه درجة ثالثة فى طهران .

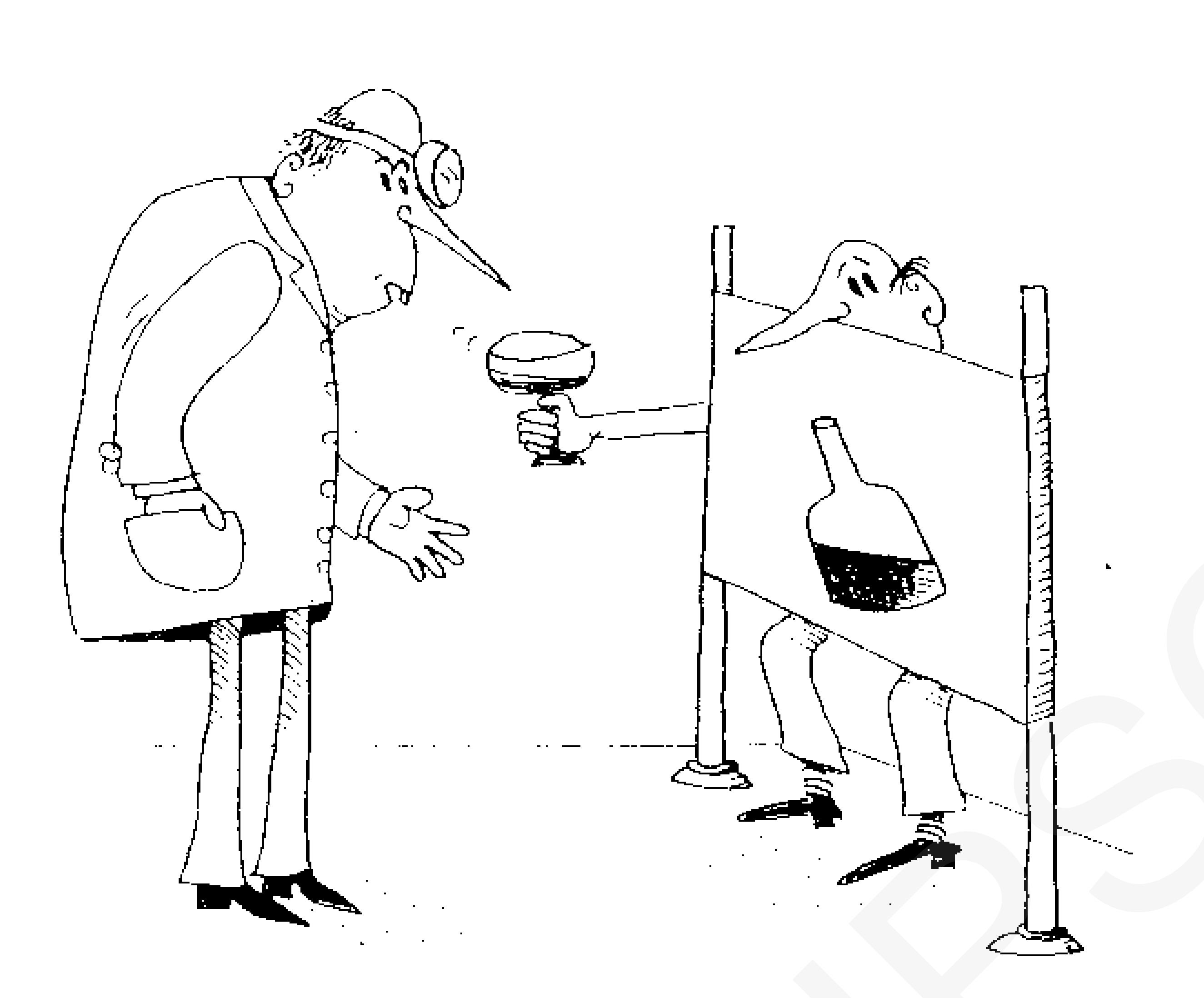
ـ ايرانية ؟

ـ ايرانية من أب كردى وأم بولندية بيضاء من اليهود الهاربين من النازى .

ـ لقاء نادر لهذا العديد من الجنسيات .

ـ لينتج امرأة بلا ولاء وبلا وطن . . أفاقة مغامرة مستعدة لأن تفعل أى شىء .

وخيم الصمت . . وتصاعدت نفثات الدخان لتغطى نظرات المفتش المشدوهة .



أعمال صالحة جدا .. ؟!

التاجر اللبناني الغني جدا لم يصدق أن دينا زوجته تموت ، وأن ما أصيبت به هو ورم سرطاني في المخ . . وهو سبب الصداع والزغللة والدوخة التي كانت تشكو منها في الأيام الأخيرة ، وكان يظن أنها أعراض عادية بسبب الشرب والسهر .

وحينها فاجأه الطبيب بصورة الأشعة المقطعية للمخ ، وتقرير الطبيب المختص ، وجد نفسه وجها لوجه أمام الموت لأول مرة .

وبرغم أنه تعود أن يعيش سنوات في بيروت بين الموت والدمار . . إلا أنه كان ينظر الى الموت على أنه خبر أو نشرة دورية تصدرها اذاعة الكتائب . . مجرد طلقات رصاص لا تمس جلده .

وحينها جمع أمواله وهاجر مع زوجته الى البرازيل ليعيش بعيدا عن بيروت وميليشياتها ، ظن أنه خرج من دائرة الموت الى الأبد ، وأنه وصل الى بر السلام والأمان ولم يعد له فيها تبقى من عمره ما يخافه أو يخشاه . كل ما تبقى من المشكلة هو أين يودع ملايينه وكيف ينفقها على سهراته وسفرياته ؟ . وأي قصر يشتري . . وفي أي حي يسكن . . وفي أي تجارة يباشر استثماراته .

ومادامت الجميلة دينا معه «١٩ سنة ملكة جمال . . عينان زرقاوان كماء البحر ، شعر أشقر مثل أكليل من ذهب مضفور . . جميلة شفافة بللورية كآلهة من آلهة الأولمب . . عصفور مغرد . ينشر السعادة حيثما حل . عشيقة عمره . . وزوجته وحبيبته» مادامت معه فلا شيء يهم .

ولكن كل شيء تغير فجأة . . دينا تموت أمامه وهو لا يستطيع أن يفعل شيئا رغم ملايينه .

كان يكلم نفسه ويسأل أعوامه الستين عن حل . . يسأل الحكمة والخبرة . . فلا ترد عليه إلا دموع جامدة متحجرة لا تنزل .

ألا يمكن استئصال الورم بالجراحة . . ؟

يقول له الطبيب : أن المشرط الذى سوف يستأصل الورم سوف يستأصل الحياة كلها معه .

ألا توجد عقاقير . . ألا توجد أعشاب . . ألا يوجد نوع من الاشعاع . . ألا يوجد دواء سحرى ولو تكلف الملايين ؟

يقول له الطبيب : أن الورم قد انتشر وسوف يغزو قريبا مراكز السمع والبصر والكلام والذاكرة والتوازن والحركة . . ولن يبقى من المرأة شيء تعرفه أو شيء يعرفك . . وقد تدركها الرحمة فيحدث نزيف يؤدى الى غيبوبة وموت ينقذها وينقذك من هذه الآلام .

ينقذنى أنا . . يقول الرجل فى صوت مذهول . . فيجيب الطبيب بصوت ثلجى .

-ينقذك من رؤيتها فى صورة كريهة لم تتعودها . . إن الحب لا يتحمل هذه المناظر .

ويهرول صاحبنا يطلب استشارات من هنا ومن هناك ويجمع الأطباء فى كونسولتو . . ويتصل بنيويورك وسان فرنسيسكو وشيكاجو وواشنجتن وبون وبرلين وباريس . . ويرسل صور الأشعة المقطعية بالفاكس ويأتى الرد من الجميع . . لا أمل . . لا يمكن التدخل الجراحى . . ولا حل سوى انتظار معجزة .

ويحدث ما توقع الطبيب البرازيلى . . ويبدأ نزيف حاد فى المخ فى منتصف الليل . . يؤدى الى غيبوبة عميقة . . ثم توقف كامل لكل نشاط فى المخ ويتوقف رسام المخ الكهربائى عن إصدار لأى ذبذبات . . لا شيء . . سوى خط أملس .

لقد ماتت دينا . . رسام المخ يقول أنها ماتت . . والرجل يصرخ كالمجنون . . مستحيل . . مستحيل . . لابد من عمل شيء .

فيقول الدكتور البرازيلى بنفس النبرة الثلجية : يمكن تشغيل مضخة التنفس الصناعى لضخ الهواء فى الرئتين . . ويمكن تشغيل القلب الكترونيا . . ويمكن الاحتفاظ بأنسجتها رطبة وحية .

فيصرخ الرجل : أرجوك . . أرجوك . . شغل المضخة .

فيرد الدكتور البرازيلى بنفس النبرة الثلجية : ولكنها لن تكون حية . . ستكون مجرد صورة . . مجرد تمثال . . لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم ولا يتحرك ولا يحس . . مجرد أعين تنظر ولا ترى ، وآذان مفتوحة ولا تسمع . . مجرد تحنيط .

فيصرخ الرجل . . أرجوك . . أرجوك . . شغل المضخة . . وشغل جميع الأجهزة . . واحتفظ لى بها كما هى أرجوك .

فيقول الطبيب مشفقا . . ولكنها عملية مكلفة . . فيجيب صاحبنا فى صراخ : لا يهم .

والى متى . يسأل الطبيب .

الى الأبد . . الى أن أموت بجوارها . . ويبكى.ويمص الطبيب شفتيه ويعمد الى تشغيل الأجهزة ثم يترك الغرفة ويمضى لحاله . . بينما يركع صاحبنا الى جوار جسم زوجته . . يتحسسها . ويقبلها . . ويتشممها . . ويهمس فى أذنها . . ثم يصرخ -دينا . . أين أنت . . ردى على . . أجيبينى ثم يتحول الى طفل . . ويأخذ يدها ليقبلها ويربت هامسا .

-أنا أعلم أنى وغد ونذل ولا أستحقك . . وقد خنتك مرات مع صديقاتك . . ولكن سامحينى وعودى الى ولن أخونك بعدها أبدا . . لن أخونك أبدا يا حبيبتى لن أخونك أبدا .

ثم يسكت ويلقى برأسه بين كفيه . . ويدير بصره الزائغ فى الغرفة . .

ولا شيء يسمع سوى صوت مضخة التنفس والأوكسجين الذى يدخل ويخرج ، وزجاجات المحاليل المعلقة التى تقطر السوائل فى عروقها قطرة قطرة لتحتفظ بطراوة ورطوبة الحياة . . الحياة شكلا وليس حقيقة . . وهم الحياة الذى يباع بألوف الدولارات كل ليلة .

وتدخل الممرضة والطبيب فى روتين فحص للأجهزة ثم يخرجان .

●●●

وتستمر الأيام والليالى يجرجر بعضها فى بلادة .

وتبرد العواطف وتتجمد المشاعر ويتحول عاشقنا اللبنانى الى زائر متحف جالس أمام أحد تماثيل متحف الشمع .

ويتأكد بالتدريج أنها ماتت . . وأنها لن تعود . . وأنه لا أمل . . وأنه يكلم شيئا لا امرأة . . يكلم موضوعا لا انسان .

ويدخل اليأس حتى نخاع عظامه . . ويستسلم . . ويميل على الطبيب البرازيلى ليقول له : تستطيع الليلة ان تنزع الأجهزة ولكن فى غيابى . . لأنى لن أحتمل هذا المنظر . . وسيخيل الى أنى أقتلها . . وتستطيع أن تعدها للدفن وقد جهزت لها مقبرة رخامية جميلة فى خارج البلدة . .

ويطمئنه الطبيب بأنه سيقوم بالواجب . . وينصحه بالابتعاد هذين اليومين حتى لا يتأثر بهذه الطقوس المؤلمة . . فيشكره صاحبنا ويضغط على يده .

ولكن الطبيب كان يفكر فى أشياء مختلفة تماما . . وفى طقوس أخرى لا يعلم عنها صاحبنا اللبنانى شيئا .

كان الطبيب يرى فى الميتة الشابة مجموعة أعضاء بشرية صالحة للبيع . . فالكليتان سليمتان وكذلك الكبد والبنكرياس والأمعاء والقلب والرئتان وأيضا قرنيات العين وأيضا الغدة النخامية والغدة الكظرية . . وهى أعضاء بسعر السوق تصل الى عدة ملايين من الدولارات والزبون موجود . . ونتائج تحليل عينات النسيج جاءت إيجابية . وهى تصلح لعدد من المرضى مطلوب لهم زرع كلية وزرع كبد وزرع رئتين وزرع أمعاء وهناك أكثر من تلكس تحت يده . . يطلبها فورا بالطائرة الى كولومبيا وسويسرا وايطاليا ونيويورك واليابان والفلبين .

وكل المطلوب هو تقطيع الأعضاء وتعبئتها مع الثلج فى أكياس بلاستيك وإرسالها فورا بالطائرة .

وآخر برقية مطلوب فيها زرع عظام . . وهو يستطيع أن يصنع بودرة عظام أيضا .

واضح أنه لن يبقى من الشابة الجميلة شىء . . وأنها ستتحول كلها الى منافع ولاتبقى إلا مشكلة واحدة هى البديل الذى سيدفن فى المقبرة الرخامية الجميلة خارج البلدة .

وكانت المشكلة محلولة بالنسبة للطبيب الذكى . . فهناك فتاة فى ثلاجة المستشفى من أسبوعين قتيلة ومغتصبة ولم يظهر لها أهل . .

وابتسم الطبيب فى نفسه وهو يهمس .

ـ سوف يظهر لها عم يتقدم لاستلامها وتخليص الاجراءات الضرورية .

ثم تعد بسرعة لتوضع فى التابوت الجميل اللائق بزوجة المليونير . . لتدفن فى المكان الجديد بهذا الحب الخالد .

●●●

وفى الطائرة الكونكورد المسافرة الى لندن وفى صالون بالدرجة الأولى . . كان يجلس الطبيب مع زميله وكان يفتح زجاجة شمبانيا احتفالا بالصفقة الدسمة .

وكان الطبيب يفرك يده مسرورا وهو يجرع كأس الشمبانيا .

ـ أنا أسعد ما أكون اليوم فقد قمت بأكبر قسط من الأعمال الصالحة . . فقد أنقذت من الموت سبعة من المرضى عن طريق هذه الأعضاء التى شحنتها بالطيران المستعجل . . هناك عميان سوف تزرع لهم قرنيات ويبصرون . . وهناك ابن بارون كولومبيا الذى يموت بنزيف الأمعاء سوف تزرع له أمعاء . . وهناك الذى سيموت بسرطان الكبد وسوف يزرع له كبد جديد سليم ، وهناك حالة قلب ورئتين ميئوس منهما سوف يستبدلان بقلب ورئتين سليمتين . . هذا يوم عيد . . وزغاريد . . وتهانى . . وسعادة سوف تعم الجميع . . بسببى وبفضلى .

ـ وهناك ثلاثة ملايين دولار ستدخل جيبك .

ـ مقابل أعمال فاضلة وحياتك سرقات عصرية مفيدة . .

ـ ولكنها سرقات .

ـ نحن سرقنا الموتى فى سبيل الأحياء . . نحن لم نؤذ أحدا . . ولم نقتل أحدا .

ـ ولكننا نفعلها أحيانا ياصاحبى حينما لا نجد بضاعة حاضرة . . ومن يدرى .

ـ من يدرى ماذا ؟

ـ من يدرى بحكاية الأشعة المقطعية التى أجريتها على دماغ الفتاة دينا . .

هل كانت الأشعة التى بها سرطان هى صورتها فعلا أم كانت من درج المكتب كالعادة .

ـ لا أطمئن . . هى صورتها بالتأكيد . . بدليل نزيف المخ الذى حدث

ـ أنت دكتور عظيم يارودريجو وتستطيع أن تحدث نزيفا بالمخ كما تريد .

وجرع رودريجو ما تبقى فى زجاجة الشمبانيا دفعة واحدة وقال وهو يترنح :

ـ بل كان النزيف هذه المرة بسبب السرطان فى مخها . . صدقنى . . صدقنى . . أنت تعرف كم أنا رجل أمين فى المهنة .

ـ أما المهنة يا صاحبى فأنا أعرف أنك أمين جدا فيها . . وأمين أكثر فى تلبية طلبات الزبائن الذين يموتون فى انتظار عضو يزرع .

ـ صدقنى هم أولى بالشفعة والرحمة . . فهم يموتون يا صاحبى . ألم تقل أنهم يموتون .

ـ والآخرون يموتون أيضا يارودريجو . . إن ذاكرتك أصبحت ضعيفة .

ـ إننا فى قارب واحد للأسف ؟! . معا أليس كذلك

ـ وحسبنا أنه قارب إنقاذ . . قارب إسعاف سريع مزود بأعظم مبتكرات العصر .

ـ ألم تفكر فى صاحبنا اللبنانى . . العاشق المفتون .

ـ بل فكرت فيه كثيرا وتتبعت حكايته وسألت عنه وعن ملايينه وعرفت أنه تاجر رؤوس .

ـ تاجر رؤوس؟؟ !!

ـ تاجر رؤوس فى الحرب الأهلية اللبنانية . . عنده عصابة من القناصة . . تقتل المارة فى الشوارع من على رؤوس العمارات . . لحساب هذه الطائفة أو تلك وفى النهاية يقبض الثمن بالدولار .

ـ شيء عجيب .

ـ لا شيء عجيب فى زماننا . . ألم يتبق شيء فى الزجاجة .

وكان يقلب زجاجة الشمبانيا فلا يجد فيها قطرة .

ـ لقد شربتها كلها يا صاحبى .

ـ شربتها كلها . . نعم . . لقد شربتها كلها .

وغمغم فى نفسه وهو يقول :

ـ والعجيب أنه كان يبكى بحرقة .

ـ من ؟! .

ـ صاحبك تاجر الرؤوس .

ـ إننا نحب رغم كل شيء . . ونبكى . . ألا تبكى أحيانا فى حب ماريانا ؟ .

ـ نعم . . ومع ذلك فقد أجهضتها أخيرا . . وأخذت الجنين المجهض لأستعمله فى زرع مخ لانقاذ بارثلوميو من الشلل الرعاش . . وقد نجحت العملية نجاحا باهرا . . وعاد يلعب الكرة . . تصور . . تصور .

ـ صحيح . . صحيح . . أنت عبقرى .

ـ ألم أقل لك أنه أصبح لنا رصيد عظيم من الأعمال الصالحة .

ـ أعمال صالحة جدا . . !!

ـ وفجأة . . اتسعت عيناه من الذعر .

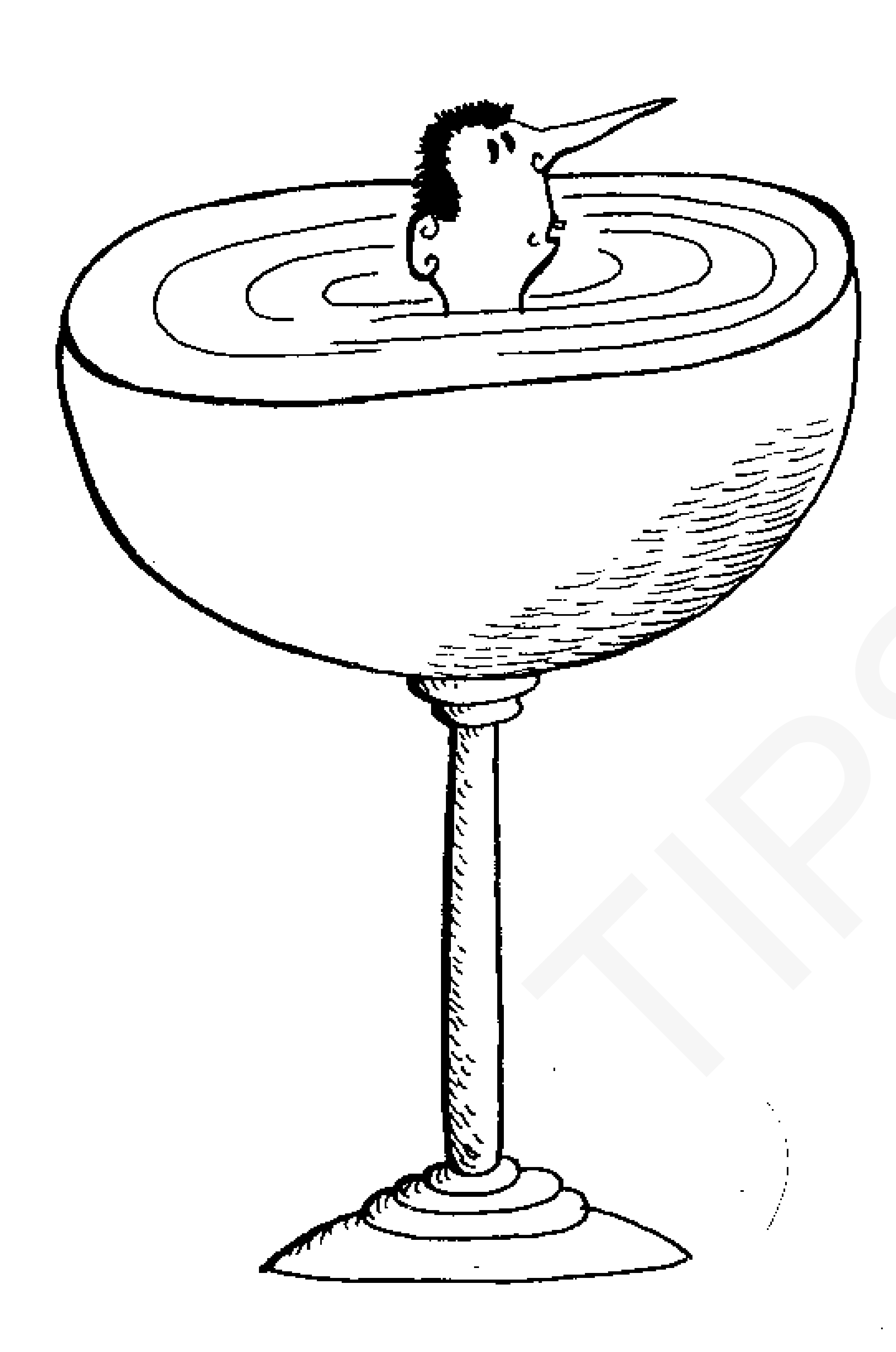
ـ ياالهى . أتسمع . . أتشعر بهذه الرجة . . ياللفظاعة .

ـ نعم إن الطائرة تهتز بشدة . . إنها تتمزق . . ياالله .

●●●

ولم تصل الطائرة الكونكورد هذه المرة الى مطار لندن .

وانما وصلت برقية استغاثة . . أعقبها صمت : ثم جاءت الأخبار بسقوط الطائرة ممزقة على جبال الشاطيء الانجليزى . وقد تناثرت أعضاء الركاب على مساحة واسعة . . عضو هنا . . وعضو هناك على بعد عدة كيلومترات .



نهاية الشبح

المليونير الكبير الذى يموت .. جمع حوله أولاده الأربعة وراح يملى على أكبرهم وصيته الأخيرة التى سينسخ بها جميع وصاياه السابقة .

إنه يملى بصوت متهدج ، والأولاد قد فتحوا أفواههم من الدهشة وكأنما يستمعون الى شخص آخر غير أبيهم الذى عرفوه .

قال الرجل فى صوت مهدم :

- هناك مليون دولار ستوزع عليكم بالتساوى أما السبعة ملايين دولار الباقية ، فوصيتى أن تبنى بها مدارس ومستشفيات وملاجىء ودار مسنين ومعهد لتعليم الحرف . وعلى الأخ الأكبر انشاء هذه المؤسسات الخيرية وادارتها ورعايتها لتكون صدقة جارية ينتفع بها اليتيم والمريض والمحتاج .

وارتفع صوت الابن الصغير معترضا :

- ولكن ياأبى لا أحد منا له خبرة بهذه الاشياء .

واستمر الأب يملى بصوته المتهدج :

- والاثنين مليون دولار فى الخزينة يبنى بها مسجد ومستوصف ومقرأه للقرآن .

وتلفت الأبناء كل واحد يتصفح وجه الآخر فى استغراب ، وعاد صوت الابن الأصغر ليعترض :

– ليس هذا ما تعلمنا منك خلال حياتنا معك .. لقد ربيتنا على أعمال أخرى .. والآن تفاجئنا بدور جديد لانستطيع أن نقوم به . أنت فى حياتك لم تدخل مسجدا ولم تصل ركعة ولم تفتح مصحفا .. ولم تعط مليما لمحتاج .. ولم تحدثنا حرفا واحدا عن الدين أوالخير .. وكل ماتعلمناه منك هو كيف نستلم البضاعة من قبرص وندخل بها مهربة الى مصر .. وكيف نوزعها على الأعوان .. وكيف نقود اللنشات السريعة وعربات النقل والمقطورات والهيلكوبتر ، وكيف تستعمل البنادق السريعة الطلقات والقنابل اليدوية ومدافع الهاون عند اللزوم .. وكيف نحول المائة جنيه الى مليون ولو قتلنا فى سبيل ذلك كل رجال خفر السواحل .. علمتنا الا نخاف أى شىء وألا نعبأ بحاكم ولابمحكوم ولا بحكومة .. وأن كل الذمم يمكن شراؤها وأن الذمة التى لاتقبل المائة سوف تقبل الألف ، والتى لاتقبل الألف سوف تقبل المليون .. وانه لايوجد كبير يتكبر على المال .. وأن كل الناس حشرات يمكن اصطيادها بالعسل .. ومن لايقع فى العسل يقع فى السم .. وأن العالم غابة لا أمان فيها .. وأن الشعار الوحيد الذى يصلح للتعامل فى هذه الغابة .. هو .. أُقتُل قبل أن تُقتَل .

هذا ما علمتنا اياه ولانرى جديدا قد جد حتى تقول لنا كلاما آخر .

– الجديد انى أموت .. أنا أبوكم يموت .. وغدا أصبح رمة يأكلها الدود . ترابا لايختلف كثيرا عن التراب الذى تطأونه بنعالكم .

– هذا ليس أمرا جديدا عليك. فقد كنت ترى الموت حولك كل يوم يختطف أعوانك .. واحدا بعد آخر .. وكنت تمشى بنفسك فى جنازاتهم ، وكنت أحيانا تقتلهم . أنت الذى كنت تقتلهم بيدك .. أوتصدر الأمر بقتلهم بنفس اللسان الذى يملى علينا الآن هذا الكلام عن بناء المساجد والملاجىء ودور الايتام والمقارىء .

– لأن هذه المرة أنا الذى أموت .. أنا الذى دوخ أجهزة الأمن فى مصر والشام والعراق وتونس والجزائر وايطاليا والمانيا واليونان .. أنا الشبح الذى لم يكن أحد يستطيع أن يضع يده عليه .. انا اليوم معتقل بالشلل والعمى وبكرسى لا أستطيع ان أبرحه .. وأنا انزف الدم من أمعائى وأموت ببطء .. وأصحو وأعود الى الغيبوبة .

والدقائق التى تبقت لى قليلة معدودة . لقد كنت أصنع الموت للالوف .. هذا صحيح . ولكن رؤية الموت تختلف كثيرا عن تذوقه . الفارق كبير .. وأنا لا اريدكم أن تذوقوه كما أذوقه .. لابد أن يتغير كل شىء .. لابد أن يتغير كل شىء .. لقد أخطأت ياأولادى .. أخطأت بفظاعة ربما اكتشفت خطئى بعد فوات الآوان .. ولكن هذا لايغير شيئا من النهاية .. ان الخطأ هو الخطأ .. اسمعوا .. هذه الوصية الجديدة هى التى يجب أن تنفذ .. هذا أمر .

وحاول أن يخرج الطبنجة من جيبه . فلم يستطع .. وطلب من ابنه الكبير أن يناوله الطبنجة .

ومد الابن الكبير يده فى جيب ابيه وأخرج الطبنجة وناولها له .. فأمسكها الأب فى اعزاز وراح يلوح بها وأصابعه على الزناد ، ثم ناولها لابنه الكبير قائلا :

– من يخالف هذه الوصية أطلق عليه النار ولو كان أخاك .. هذا آخر أمر .. هذا آخر أمر لى فى هذه الدنيا . اقتل . اقتل .. بلا تردد أى ارادة تقف فى سبيل هذه الوصية .. هذه الأموال فى البنوك وفى الخزائن ليست ملكى لترثوها .. انها سرقات .. لاتكفير لها الا أن تبنى كما هدمت وتصنع من الحياة بقدر ما أعدمت.

– والعمارات :

قالها الابن الأصغر بصوت مرتجف :

– تباع فى مزادات ويصنع بثمنها نفس الشىء .

– وكازينو القمار .. وأوبرج ميلانو .. وشركات بيع السلاح فى لندن وشقة باريس وفيلا جنيف .. وشاليهات فلوريدا .

– تباع كلها . لانصيب لأحد فيها .. ولايد لأحد عليها .. ولاتؤول لأحد منكم .. انها ملكى وحدى وأنا وهبتها لنفس الأغراض .. وثمنها يكفى لانشاء جامعة .

– ونحن ماذا يبقى لنا وكيف نعيش ؟!

– ان المليون دولار التى ستقسمونها بينكم تساوى أربعة ملايين جنيه مصرى .. اى مليون جنيه مصرى لكل واحد فيكم .. وهى بداية تكفى لأن يبدأ كل منكم حياة شريفة ..

وبدت كلمة الشرف غريبة وهى تخرج من فم «الضبع» صاحب اكبر عصابة مخدرات فى الشرق الأوسط ، وبدا لها رنين غريب فى جو الصمت والرهبة مما جعل كل ابن يتلفت فى وجه اخيه ويقلب شفتيه ، فى انتظار معجزة .

وكانت المفاجأة مرعبة .. فقد سحب الضبع الطبنجة من يد الابن الكبير ولوح بها فى وجوههم وأطلق الرصاص فى الهواء .. وفى كل اتجاه .. مما جعلهم يتقافزون فى رعب ويلتصقون بالجدران بينما تهدج صوت الرجل وهو ينطق :

ـ هذا آخر أمر .. آخر امر لى قبل ان أموت ولابد أن ينفذ .

واختنق صوته وانطلق يلهث .

ثم سكن فجأة وسقط رأسه على صدره ولفظ آخر أنفاسه فى صمت .

واطبقت لحظة ثلجية من الذهول والرعب على الجميع .. لاحركة .. ولا صوت .. ولاشىء سوى أنفاس مرتجفة ونبضات مضطربة ونظرات زائغة ، ثم بدأ الابن الأصغر يتحرك ويسعل ويلوح بيديه فى الهواء ولايجد كلاما : ثم مالبث أن جمع أشتات نفسه ثم انفجر قائلا :

ـ لقد فعل كل شىء لم يترك جريمة لم يرتكبها ، لم يدع لذة لم ينتهبها لم يدع امرأة لم يغتصبها ، لم يدع شرا لم يقارفه ، لم يدع رذيلة لم يلهث خلفها .. والآن وفى آخر لحظة حينما فقد القوة على عمل أى شىء ، وحينما فقد الأمل فى أى متعة وفقد القدرة على أى لذة .. الآن فقط يقرر أن يبعثر كل أمواله ويحرمنا منها لأنه أصبح وليا من أولياء الله شغله الشاغل بناء المساجد ومقارىء القرآن والملاجىء وبيوت الأيتام ، شىء غير مفهوم .

ـ الدكتور الذى كشف عليه بالأمس قال انه قد أصابه ضمور فى المخ .

ـ هى أعراض هذيان بلا شك .

ـ انه يخرج من غيبوبة ليعود الى غيبوبة . ولا يمكن أن يؤخذ كلامه مأخذ الجد .

قال الابن الكبير فى هدوء مريب :

ـ ولماذا لايؤخذ كلامه على أنه توبة حقيقية ؟!

فأجاب الابن الأصغر فى عصبية .

ـ توبة رجل مشلول فقد القدرة على كل شىء .. لايمكن أن تكون توبة حقيقية .

قال الابن الأوسط مؤيدا :

ـ فعلا . التوبة عن الذنب لاتكون مفهومة الا من رجل قادر على الذنب .. فهو يقلع عن ذنبه بارادته واختياره .. اما فاقد الارادة وفاقد الاختيار وفاقد القدرة .. فهو كذاب اذا ادعى فضيلة .. واذا ادعى توبة .

قال الابن الكبير بنفس النبرة الهادئة :

ـ التوبة مسألة نية . ولايحكم على صدق النيات الا الله .. وليس من حقنا ان نكذب الرجل فلا احد منا يطلع على قلبه .

ـ ان قلبه بلون القطران . حياته كلها تقول هذا .

قال الابن الأصغر :

ـ ان حالته مثل حالة رجل تاب عن نزول البحر حينما فقد القدرة على السباحة .

فاجاب الابن الأكبر :

ـ لايمكن أن تتهمه بالكذب الا اذا استعاد قدرته على السباحة ولم ينفذ وعده .. ونفس الشىء .. لايمكن أن نتهم أبانا بالكذب الا اذا استعاد حياته واستعاد صحته .. ثم عاود جرائمه .. ولم ينفذ وعده .. وهو مالا سبيل الى معرفته .

ـ ماذ تعنى ؟

ـ اعنى ان الوصية واجبة .. ولاسبيل الى الطعن عليها .. وسوف أحرص على تنفيذها : وأخرج طبنجته ووضعها على المائدة مردفا :

ـ وعلى من يقف فى وجه ارادة الميت .. أن يستعد ليلحق به .

وقفز الابن الأصغر مرتاعا وهو يردد فى دهشة :

ـ هل جننت .. هل فقدت عقلك .. هل صدقت هذا المعتوه ؟!

وخرجت من الأخوين الآخرين تمتمات مرتعشة :

ـ هل نحرم انفسنا من مائة مليون جنيه لمجرد نزوة توبة خرجت من دماغ مشلول .

ـ ألم نكسب له هذه الملايين بدمنا وعرقنا . كيف لاتكون اموالنا .
قال الابن الأكبر وهو يعبث بزناد مسدسه :
ـ انها سرقات . ربما كانت هذه الكلمة هى كلمة الصدق الوحيدة التى قالها أبونا فى حياته .. ولكنه قالها . وقد صدق .. وأنا أشهد على ذلك .. والقتلى الذين قتلناهم من حرس الحدود ومن خدم الفنادق ومن ضباط الانتربول .. يشهدون . والله فوق ذلك يرى ويشهد .
ـ أنت أيضا تتكلم عن الله .. متى عرفت الله وبالأمس كنت تقتل .
ـ ان رؤية الموت تختلف كثيرا عن تذوقه .. لقد نطق أبونا بالحكمة أخيرا . لم يكن معتوها حينما قالها .. ان الذى سوف يموت منكم ويتحول الى رمة يأكلها الدود والى تراب تدوسه النعال .. سوف يدرك ان هناك فارقا كبيرا .. كبيرا جدا بين رؤية الموت وبين تذوقه .. وليس منكم من هو بعيد عن هذا المصير .
وعادل يغازل زناد مسدسه فى هدوء مريب .
ـ أنت تهذى .. أنت لست فى وعيك .. لقد أصابك موت ابينا بالهذيان .
ـ لم أكن فى وعيى فى أى يوم من الأيام كما أنا الآن .. بل أنا كمن أخرج رأسه من تحت الماء لأول مرة ورأى لأول مرة حقيقة الدنيا ؟
ـ وماهى حقيقة الدنيا .
ـ بالونة توشك أن تنفجر .. فقاعة تلمع بألوان الطيف الجميلة البراقة .. ثم فجأة تصبح لاشىء .
ـ هل أصبحت واعظا .
ـ لا بل أنا مجرد قائم على تنفيذ وصية .
قال الابن الأصغر :
ـ انها مجرد كلام شفوى .. لايساوى الحبر الذي كتب به .. وهو أيضا لم يعش حتى يوقعها .. انها مجرد قصاصة ورق بلا توقيع ولن يأخذ بها قضاء أو قانون .
ومد يده فجأة واختطف الورقة ومزقها فى عصبية الى مزق صغيرة .

ونظر اليه الابن الاكبر نظرة ثلجية وأجاب فى بطء ثقيل :
ـ ومنذ متى كنا نلجأ الى القضاء أو نحتكم الى القانون أو نأخذ برأى العدل .
ـ لم تعد هناك وصية .. انتهى كل شىء
فأردف الابن الأكبر فى نبرة كرنين الفولاذ :
ـ أنا الوصية .. وأنا القانون .. وأنا العدل . وفجأة وفى حركة غير محسوبة أخرج الابن الأصغر مسدسه وأطلق رصاصة على أخيه الأكبر أصابت كتفه .وجاء الرد فوريا من الطبنجة فى يد الأخ الأكبر سيلا من الطلقات .. وانبطح الأخوة أرضا يتبادلون الرصاص .
وأسفرت المذبحة عن ثلاثة قتلى وأفلت الأخ الأصغر من الموت .. ليسرع الخطى الى الخزينة .. والى مخابىء الدولارات فى الجدران .. يفرغ كل شىء فى حقيبة كبيرة وليقفز بها الى عربته المرسيدس وليدوس على البنزين باقصى سرعة وقد بسط أمامه خريطة كبيرة .. وراح ينظر فيها .. باحثا عن خط سير مأمون الى الصحراء الليبية عبر الحدود .
كانت ليبيا .. بعد فتح الحدود وازالة الجمارك هى أكثر الأهداف أمنا .
ولم يتردد .
وأطلق لسيارته العنان وقد راوده الشعور بالأمن لأول مرة بعد ليلة عاصفة .. لم يكن يفكر فى أى شىء .. ولم يكن نادما على أى شىء .
كان يشعر بنفسه فقط.
وهكذا عاش دائما لايفكر الا فى نفسه وفى لحظته .
وكان يؤمن بالحكمة التى علمها له أبوه . ان كل الناس حشرات يمكن اصطيادها بالعسل . ومن لايقع منها فى العسل يقع فى السم .
ولم يحدث أن شعر مرة واحدة بروابط العائلة او صلة الدم .. وماكان أبوه وأخوته الا مجرد وسائل للثراء السريع وجمع الدولارات .. مجرد أعضاء عصابة يجتمعون وينفضون على خطط القتل و الاجرام .. ويعود كل واحد آخر الليل الى بيته لينام بلا ذرة ندم .

وكل ما جرى من حكاية الوصية كان أضغاث احلام .. مجرد جملة اعتراضية بلا معنى جاءت بين قوسين .. ثم عاد سياق الحياة ليستأنف مسيرته كالمعتاد .. قتل ورصاص وهرب واختفاء .

لا جديد .

وضغط على البنزين أكثر .. وانطلقت المرسيدس تسابق الريح .

★★★

ربما مضت سبع ساعات أو أكثر .

لايذكر بالضبط .. فالساعة توقفت بعد ان اصابتها رصاصة أثناء تبادل الطلقات .. وقد انقذت الساعة السميكة معصم يده . وهو يرى الآن الصحراء تمتد أمامه بشعابها وتلالها الرملية على مدى البصر والفجر يبدو من وراء الأفق والشمس تطلع .

وبعد ساعات اخرى سوف تلتهب الرمال بحرارة أغسطس المشتعلة .. شكرا لجهاز التكييف الذى يقوم بواجبه .

★★★

هل مضت عدة ساعات اخرى ؟

انه يرى الشمس فى السماء والصحراء تحولت الى بريق أبيض يعمى العين .

لقد توقف مرتين واستبدل اطارا أماميا .. وملأ جهاز التبريد بالماء .. ولم يبق عنده ماء .. ليملأ الجهاز بجرعة أخرى .

وتوقف مرة ثالثة ليملأ خزان البنزين بما تبقى عنده من احتياطى .. والصحراء مازالت تمتد أمامه بلا نهاية .

هل أخطأ فى اختيار الممرات ؟

وعاد ينظر الى الخريطة .. ويمر بأصبعه على الخطوط الطويلة .

نعم .. لقد دخل فى ممر دائرى .. وسيكون معنى هذا بضع ساعات زيادة ليصل الى الحدود الليبية .

لايهم .. خزان الماء ممتلىء وكذلك خزان البنزين .. ومزيد من السرعة سوف يختصر الزمن .

★★★

الشمس تغرب وساعات اخرى بطيئة ثقيلة ومؤشر البنزين يقترب من الصفر . واللمبة الحمراء تضىء .

الخريطة تقول أن ما تبقى لبلوغ الحدود قليل ربما عشرة كيلو مترات .. ربما أقل ، واذا نفد البنزين بعد خمسة أو ستة كيلو مترات .. فانه يستطيع أن يحمل حقيبته ويمشى الباقى على قدميه.. وساعات أخرى قلقة متوترة .

وتتوقف العربة كخنزير أسود فى صحراء حالكة الظلمة .

ويحمل حقيبته وينزل .. ليمشى وقد وضع الخريطة فى جيبه .

ساعة أخرى .. ساعتان .. ثلاث ساعات .. وتتهاوى ساقاه ويتكوم فينام على تل من الرمال الناعمة .. فاقد القوى تماما .

وما تكاد تمر دقائق حتى ينتفض من لدغة تلسعه كالنار .

بطرف عينيه يرى ثعبان الطريشة يعود أدراجه ليغوص فى الرمل بعد أن فعل فعلته .

انه يعلم ماذا ستفعل به لدغة الطريشة من ثعبان بهذا الحجم الذى رآه .

لا أمل .. انتهى كل شىء .

وزحف على بطنه ليفتح الحقيبة ويلقى نظرة اخيرة على ملايين الدولارات المكدسة . وبدأ السم يسرى فى دمه ليصل الى مركز التنفس ويصيب عضلات التنفس بالشلل .

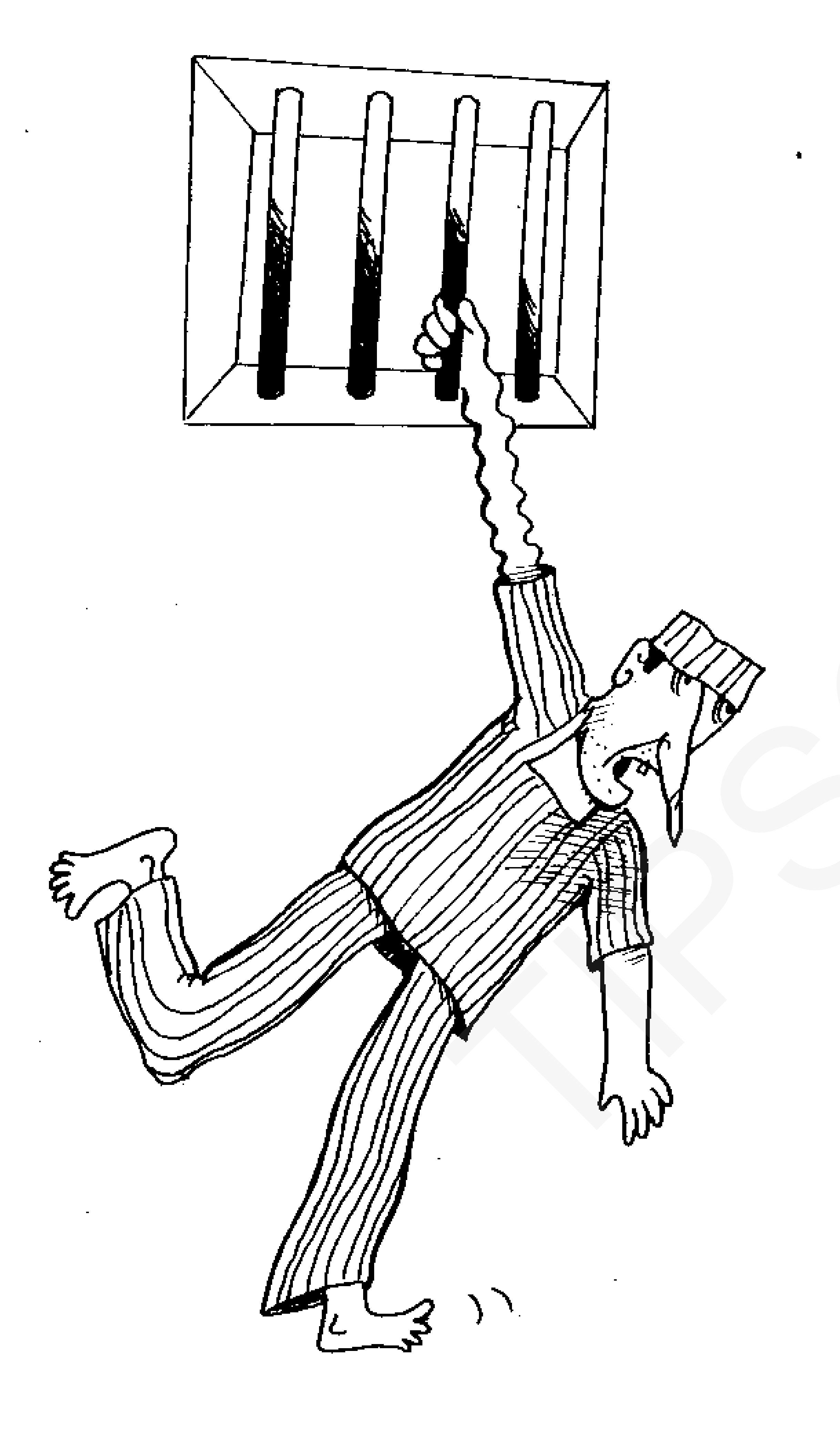
وبدأ صوته يتحشرج ويحتضر ويسلم الروح .

وهبت دوامة عاتية من الرمال بعثرت محتويات الحقيبة لتنتشر على مساحة شاسعة من الصحراء وتبعثر اكوام الدولارات الى هباء .. أمام عينين تخمدان .

ومات آخر ابناء عائلة الضبع .

وعرف أخيرا الفرق بين رؤية الموت وبين تذوقه .

وكم كان الفارق كبيرا .



حكاية مدير بنك

خطر له فى زنزانته فى السجن ان يكتب تاريخ حياته بلغة تلغرافية مركزة كما هى عادته فى تدوين الاحصاءات . . فهو أستاذ احصاء متخصص .

ودار شريط الزمن فى رأسه وبدأ يكتب وكأنما يعيش من جديد مع الكلمات . . كلمة . . كلمة .

١٩٢١ ـ ولدت ومعى توأم هزيل مات بعد شهور . . يبدو أنى كنت أسطو على نصيبه من الغذاء فى الرحم أولا بأول . . (وهى عادة يظهر أنى ولدت بها . أن آخذ نصيبى ونصيب غيرى) .

ورفع رأسه من الورق وراح يفكر :

هل يمكن أن يكون الطمع وحب السرقة والسطو صفات ثابتة يولد بها صاحبها ؟ ومن أين جاء بهذه الصفات . . إن أباه وأمه اطهار أخيار أبرار ولايذكر فى سيرة العائلة أن أحدا مد يده الى شيء . . والأجداد مشايخ . وأجداد الأجداد أغنياء تركوا أوقافا للفقراء وبنوا الملاجيء والمدارس والمستشفيات وفتحوا بيوتهم لإطعام السابلة . . فمن أين جاءه كل هذا الطمع والشره . من أين جاء ه ؟ !

وكيف يكون ابن أمه وأبيه وليس فيه شيء من أمه ولا من أبيه .

ثم تذكر أن ابن نوح كان كافرا . . وأن ابراهيم كان أبوه جبازا عاتيا . . هكذا ذكرت الأخبار . وان الأبناء باللحم والدم لايكونون أبناء بالصفات . . وأن النفس تخص صاحبها وحده وان كان ثوبها من اللحم

والدم مستعار من الأبوين . وأن النفس لابد تأتى بسرها معها .. وأن القالب الذى تستعيره من الأبوين هو مجرد الركوبة ووسيلة المواصلات فى هذا العالم الجديد العجيب .. ولايجمع النفس والبدن الذى جاءت به من الأبوين الا مجرد المناسبة .

وضحك وهو يهرش رأسه ويفكر .

حتى هذه لم توجد . فلا توجد مناسبة فى هذه المناسبة .

وعاد يضحك .. ويسأل نفسه ..

أنا إذن الى من أنتمى ؟ !

وبعد عدة علامات استفهام سطرها على الورقة .. لم يجد جوابا شافيا .. ولم يجد بدا من الاعتراف بأنه ينتمى الى نفسه .

وضحك مرة اخرى على الاجابة العجيبة لأنها لم تكن إجابة .. بل كانت سؤالا . وأخرج المرآة الصغيرة التى يحلق فيها ذقنه . ونظر فى وجهه .. وحملق فى ملامحه وأخذ يغمغم :

ـ أنا هو أنا .

أنا لم آت من أحد .

ليس لى أول .. ولا أظن سيكون لى آخر .

١٩٣١ ـ أصبت بشلل أطفال .. أصاب الشلل اليد التى كنت أسرق بها .. ولكنى شفيت بعد علاج طبيعى طويل .. ولم يترك الشلل الا عاهة بسيطة لاتذكر .. لكن الرقاد الطويل فى الفراش أشعل ذكائى وفجر مواهبى الباطنة .

١٩٤١ ـ أنا الابن المتفوق فى العائلة .. الأول فى الابتدائى والثانوى والجامعة .. واسمى فى لوحة الشرف وصورى فى الجرائد .. ونجاحى موضع حسد الجميع .. بنات عمى وبنات خالى وبنات الجيران وزميلات الدراسة .. يتوددن الى .

اكتشفت أن الدلال صفة تعود بالربح المضمون على صاحبها .. فقد ترامت الهدايا من الكل على قدمى .. كل واحدة تحلم بى زوجا .. وكالعادة كنت احرص على أن آخذ ولا أعطى ولا أدع فرصة تفوت دون أن اهتبلها .. ثم أفر هاربا من الارتباط .. لم أكن أريد أن اتعجل

الزواج .. فقد كنت أعلم ان الزواج قيد وأنا لا أحب القيود حتى ولو كانت مغزولة بخيوط الحب الحريرية .. ولم يكن عندى ذلك الضعف الذى يعانى منه أكثر الرجال .. ذلك الضعف الغريزى امام الجمال وامام المرأة .. وانما كان عندى ضعف آخر أعرفه جيدا .. ضعف أمام المال . لأنى كنت أعلم بالفطانة أن المال سيوصلنى بعدذلك الى كل ما أريد .. فهو الذى سيجلب لى الجاه والسلطة والمرأة وكل شيء .. فجعلت من المال هدفا وحيدا .. أطلبه من جميع أبوابه .. المشروعة وغير المشروعة ..

١٩٥١ ـ أصبح لى منصب مرموق فى الدولة رغم عمر لم يتجاوز الثلاثين .. وفى المكان الحساس الذى أحلم به.مدير بنك .. يجرى تحت يدى المال السيال .. والعملات بأنواعها . والشيكات والسندات والاعتمادات . ويتردد على بابى أصحاب الأعمال وأصحاب السلطان والوزراء .. والتجار .. واللصوص .. وقطاع الطرق .. وصناع الصفقات وأصحاب الخبطات المالية .. وبدأت اتعرف على السراديب والدهاليز والأبواب الخلفية والطرق الجانبية التى توصل الى الكسب السريع والنجاح السريع .

١٩٦١ ـ الاشتراكية .. وبحر المال السايب .. وتأميم البنوك وتأميم المصانع ومصادرة الثروات او نهبها فى الحقيقة .. والمنهج الاشتراكى الذى جاء ليحارب الاستغلال .. كان فرصة ذهبية لفتح باب السرقة للكل لأنه وضع المال فى أيد لم تتعب فى جمعه واكتسابه .. وأصبح على كل مكتب لص ، وعلى كل باب لص . وعلى كل خزينة لص .. وأعطت الاشتراكية للحاكم المستبد الفرصة التى كان يحلم بها .. فجعلت من الكل موظفين تحت يده . وعبيد لقمة .. مجرد اسماء فى دوسيه يشطب على ما يشاء منهم فيخرجه من الوجود ويلقى به وراء الشمس.ويحرم من يشاء ويعطى من يشاء ويرفع من يشاء ويخفض من يشاء «وهذه كبرى حسنات الحكم الشمولى» وأصبح التقرب الى السلطان هو العمل الأول الذى له شأن فى مصر .. وطفا على السطح المنافقون والكذابون والمتملقون وحملة المجامر والمباخر وكتاب الشعارات والهتافات .. واختفى الأمناء والمخلصون والصادقون ودخل اهل الكفاءات الحقيقية فى الجحور ، ومشى أهل الخبرة الى جوار الحائط طلبا للأمان .

ومشت الثقافة كلها فى الزفة تطبل وتزمر . السينما والمسرح والتليفزيون والاغنية ، الكل يتسابق ليتقرب الى الحاكم بالكلمة التى يحبها . والانتخابات كلها لا ونعم .. والذين يقولون نعم هم ٩٩,٩٪ والواحد فى الالف هو الخائن الذى سمح له بالتصويت لأننا فى بلد حر وديمقراطى جدا !

وكنت أوقع على ميزانيات كلها أكاذيب وأصدر احصاءات كلها أكاذيب .. وأخرج من درج مكتبى (فقد أصبحت رجلا مهما) بيانات كلها أكاذيب .

١٩٦٧ .. حرب ٦٧ والاعلام كله يكذب ، ووزير الدفاع يكذب ، والحاكم يكذب ، والصحف تكذب ، والكتاب يكذبون ، والخطباء يكذبون ، والمغنون يكذبون .. والحقيقة واضحة مثل نور الشمس .. يراها الكل رأى العين .

ولم يستطع الكذب أن يقف على قدميه .. وانهار كل شىء دفعة واحدة.

وكانت اليقظة متخبطة مريرة .. وكان الحق يتلعثم فى الأفواه .

١٩٧١ ـ كنت أحد الذين حققوا معهم .. «من أين لك هذا» ولكن أغلب ثروتى كانت فى بنوك اجنبية فى الخارج .. وكانت ممتلكاتى فى الداخل فى حدود يمكن تبريرها .. وخرجت من التحقيق نظيف اليدين طاهر السمعة .

١٩٧٥ ـ تسلقت الى مناصب أكبر ومسئوليات أكبر .. لكن الحريات النسبية التى أتيحت للناس جعلت الانحرافات أصعب . لأنها سرعان ما كانت تتحول الى فضائح وتشيع روائحها ويدخل الفضولون عليك من جميع الأبواب .. ورغم أن الصحف «وأكثر كتابها كانوا منتفعين قدامى» اطلقوا على المرحلة اسم الانفتاح والفساد إلا أن ماحدث كان بداية إصلاح حقيقى . وكنا نحن كبار اللصوص نشعر بهذا .. ففى النور .. كانت تصعب مسائل كثيرة .. كانت فيما مضى تحدث بسهولة فى الخفاء وفى مناخ من الالسن المقطوعة والاقلام المقصوفة والمعتقلات التى يلقى بها كل شارد ووارد . كنا نسرق ولكن حولنا الف عين .. ووراءنا ألف لسان

ثرثار ، وأصبح الأمر أكثر مشقة .. وأصبحت السرقات الشريفة أسهل .. ولهذا قررت الزواج .. وكان زواجى صفقة أدخلت الى رصيدى عدة ملايين اخرى لكن بطريق نظيف .

١٩٨٠ ـ زوج ورب أسرة وأب لأولاد . وقت غير مناسب لدخول السجن ، وختام غير مناسب لحياة رجل عصامى ونهاية غير مناسبة لسيرة حافلة لكفاح عظيم .

لا أحد يصدق سجل التهم والسرقات والجرائم التى اطلقها النائب العام فى وجهى ورددتها الصحف .. حتى أنا من كثرة ما كتب عنى من مدح وثناء فى سالف الأيام نسيت هذه الأشياء التى فعلتها وصدقت فعلا أنى رجل شريف وعشت حياتى كرجل شريف استمتع بتقدير الناس وإكبارهم كأمر واقع لاشك فيه .

وفى دخيلة نفسى وفى أعماق ضميرى كان شعورى دائما أن الناس كلهم أغبياء وفى باطنى كنت أحتقرهم وأرى أنهم لا يستحقون ما يعيشون فيه من ثراء ، وكنت أرى نفسى دائما أولى بهذا المال و أحق به .. وكنت أرى أن كل ما يدخل جيبى فانه يدخل الى مكانه الصحيح والشرعى .

هو شعور داخلى كنت أشعر به دائما .. منذ بدأت أفتح عينى على الناس حولى .. وكان سلب هؤلاء البلهاء هو مجرد تصحيح أوضاع .. وإعادة للحق الى نصابه .. فلسفة عشت بها ومنهج كنت اطبقه باقتناع تام .

وبالرغم من فصاحة النائب العام فى الخطبة الرنانة التى ألقاها فى اتهامى فقد شعرت بأنه حمار كبير ولو كان إنسانا طبيعيا لسرق مثلى ، وغلطتى الوحيدة التى ارتكبتها أنى تركت لصا آخر يبلغ عنى ولم أسارع لاغلاق فمه بالمبلغ المناسب .. والغلطة كانت فى تقدير الثمن .. وكان حجم المبلغ المعروض اقل من سعة الذمة .. فكل الذمم يمكن شراؤها «وهذه فلسفتى» ولكن الفرق بين ذمة وأخرى هو الثمن .. وأكبر غلطة أن تدفع ثمنا أقل فتضيع الصفقة وتضيع معها .. لأن صاحبنا سيتحول من القبض منك الى القبض عليك . وهذا ماحدث والخطأ فى هذه الأشياء يحدث فى العادة مرة واحدة .

ويكفى ان تكون حمارا مرة واحدة ليركبك الكل وتفقد كل شىء .

وهذه بكل بساطة كانت السقطة التى أدخلتنى السجن .

وبالنسبة للمجرمين امثالنا . أهم شىء أن تعرف حجم اعدائك وتعرف حجم نفسك . . ولاتخطىء فى الوقت الذى تختاره للتصرف . . فتفعل فعلتك فى الوقت المناسب . . ليس قبل وليس بعد . . وفى المكان المناسب ومع الشخص المناسب .

١٩٩٠ ـ وفى زنزانتى الآن وأنا أقرأ عن حرب الخليج ومسلسل حوادثها العجيب أشعر على وجه اليقين أن سفاح العراق كان أغبى مجرم فى التاريخ . . فهو لم يعرف حجم اعدائه ولا حجم نفسه . . وقد أخطأ الوقت المناسب . . اخطأ الرجل المناسب وأخطأ الثمن المناسب ، وقد ضحك عليه خصومه وصنعوا منه بالونة كبيرة صدقها فى غباء ثم فرقعوها فجأة بدبوس .

إن الجرائم فن عظيم .

وفيما تبقى لى من سنوات فى السجن سوف أكتب موسوعة كبيرة فى فن الاجرام . وكيف تكون مجرما عظيما . . تضحك على كل الناس ولايضحك عليك أحد .

وسوف أكتب عن الجريمة الكاملة . . وهى الشىء الذى لم يوجد حتى الآن . . وفى اعتقاد البعض انها لايمكن أن توجد . ولكنى أظن أنها أوشكت ان تحدث هذه المرة . . لولا هذه الغلطة الوحيدة التى ارتكبتها . . حينما اخطأت فى تقدير الثمن وأخطأت فى حساب سعة الذمة التى أتعامل معها .

وكانت غلطة العمر .

وليس صحيحا أن نابليون والاسكندر وغليوم وأمثالهم من القادة كانوا عظماء ، بل كانوا مجرمين وكل مانجحوا فيه انهم اخترعوا أسماء شريفة لسرقاتهم . . مثل توحيد العالم . ونشر الحضارة وتحرير الانسان .

ألم تخف الاشتراكية سوآتها وجرائمها تحت رايات الحرية والعدالة والديمقراطية وصدق الجميع تلك الاكاذيب ، مع أن الحرية والعدالة والديمقراطية كانت أول ماقضت عليه الاشتراكية . . والعمال أول من بخست حقوقهم .

وكم من العظماء والقادة ماتوا فى قمصان الشهداء وتغنى بهم الشعراء وطارت بشهرتهم الركبان وهم لصوص .

وهل كان جيفارا الا لصا افاقا وقاتلا محترفا

١٩٩١ ـ ولاشىء يعزينى فى وحدتى فى زنزانتى الباردة الا انى سوف التقى بهؤلاء الاخوة اللصوص العظام . . وسوف نشترك معا فى مصير واحد . . وستكون لنا فى الاخرة منصة واحدة . . نقف فيها امام الديان . . فلا احد سوف يضحك على الله . . والله لايقرأ صحفنا ولايأخذ أحكامه من نقادنا الأفاضل كتاب الاعمدة ومعلقى الاذاعة . .

ولن أدهش اذا وجدت معنا الكثير من المشايخ . . وبعض سكان الاضرحة وبعض الأولياء أصحاب صناديق النذور . ولو كان صاحبنا سفاح العراق قد انتصر لاحتل ضريحا له ولعصابته ولأصبح من الأولياء أصحاب المزارات . . كما فعل أمثال له فى التاريخ . وسوف أسعد بصحبة النائب العام والقاضى الذى حكم علي إن شاء الله .

وأجمل ما فى الاخرة انها ستكون مفاجأة مبهرة وستكون وقائعها أغرب من الخيال .

ولا شك أنها ستكون مفاجأة عجيبة أن يجد النائب العام نفسه الى جوارى فى موقف الادانة العظمى التى لامهرب منها . . ومعه القاضى والجلاد والسجين والسجان . . ستكون لحظة مدهشة . . وسوف نبكى جميعا .

وسوف أسأل ربى سؤالا واحدا .

سوف أقول له يارب . هذا أنا يارب وقد أشهرت صحيفة اعمالى كلها . وهذا أنا وقد بدأت أول سرقاتى فى رحم أمى . فكنت أسرق الغذاء من أخى التوأم . . فهكذا ولدت لصا .

فهل كان يمكن أن أكون غير لص ؟!

أكان من الممكن أن أكون غير نفسى .

ومايشقينى ويفجعنى ويملأنى رعبا . . ان الله سوف يرد على بالحجة البالغة . ولله الحجة البالغة دائما .

سوف يكشف الستر عن لغز هذه النفس التى تعللنا بها جميعا ، وسوف يهتك عنها الحجاب ويمزق النقاب . . وسوف يشهدنا كيف فطرها بيضاء لم



يودعها كراهية ولم يضمنها حقدا ولم يبطنها حسدا وإنما جعلها مفتوحة النوافذ على جيمع الأهواء والرغائب .
وأن كلاهنا كان تاريخا . . من الخيارات . . ولا نهاية من الامكانيات . . لم يكن لها أول . . ولن يكون لها آخر .
فهذا شعورى فى ساعات الوحدة والصمت والندم . . أنى هنا منذ الأزل . . لم يكن لى أول ولن يكون لى آخر .
لكم اتمنى أن أتوب وأخلع عنى نفسى وأسلخها كما يسلخ الجلد من البهيمة .
يا ألله . . ياغفار .
كم اتمنّى ان أتوب .
أتوب من خبيئة قلبى . وأتوب عن دفينة ذاتى وأخلع عنى القشر واللب . . وأتخطى . . الممكن والمستحيل .
وهل غيرك يارب من يسأل فى مستحيل ؟!

قبـــر الاســـكندر

بطل قصتنا ناجى بغدادى مهندس آثار بالاسكندرية . . السن اربعون سنة . أعزب . وهو يسكن فى الدور الأرضى من بيت قديم قرب المسرح الرومانى .

ونراه الآن فى غرفة نومه وقد ركع على الأرض وشمر ساعديه وراح يحفر بفأس فى يده وأخذ يخلع بلاطة بعد بلاطة من أرضية الغرفة فى صبر شديد واهتمام ، مراعيا الا يحدث صوتا

وما نلبث أن نسمع صريرا ونرى الباب يفتح ويقف زميله بالباب مشدوها وقد اتسعت عيناه من الذهول وهو ينظر الى عملية الحفر التى تجرى أمامه بدهشة .

ـ ماذا أرى أمامى . ماذا يحدث بالضبط ؟

ـ أحكى لك وتحفظ السر ؟

ـ وهل هناك سر بيننا ؟ !

ـ هو سر فعلا ، لكنى سوف أبوح لك به .

ـ شوقتنى .

ـ اجلس اولا واهدأ واسمعنى .

وجلس صاحبنا .. الدكتور بكر .. الطبيب الشرعى بصحة اسكندرية والأعزب هو الآخر .. وتربع على الأرض .. واعطى كل سمعه فى لهفة وكأنه ينصت الى رواية من روايات الف ليلة .

وشرع ناجي يتكلم فى هدوء وبنبرة جادة .

ـ منذ أسبوع وأنا احلم كل ليلة أحلاما غريبة وأسمع من يكلمنى باليونانية ليقول لى .. احفر تحت سريرك .. قبر الاسكندر تحت غرفتك .

وظهر أثر ابتسامة على وجه بكر .. ما لبثت ان اتسعت ثم انفجر ضاحكا .. وفقد توازنه وراح كل جسمه يهتز من الضحك .

ـ كنت اعلم أنك ستضحك .. أنا أيضا كنت أضحك من نفسى مثلك فى البداية .

ـ معقول ؟؟ .. !! .. عالم الآثار المحترم الدكتور ناجي هو الذى يقول هذا الكلام .. أنا افهم ان يقوله سيدى ابوالعباس المرسى أو مولانا السيد البدوى .. أو ولى من اولياء الله أو شيخ صاحب كرامات اما الدكتور ناجي دكتوراة من كامبردج من بلاد الأيدز والشمبانيا والـ .. FREE SEX يبقى مش معقول .

ـ أنا أيضا كنت أقول نفس كلامك .. ولكن الأحلام ظلت تتكرر ليلة بعد ليلة .. نفس الأحلام الغريبة المختلطة ، ونفس الكلام اليونانى .. احفر تحت سريرك .. قبر الاسكندر تحت غرفتك .. ونفس المشاهد اليونانية من عالم بعيد قديم .

ـ شىء عجيب .. انا لا أكاد اصدق أذنى .

ـ ولا أنا .. لكن التكرار بدأ يؤثر بالتدريج على أعصابى وعلى عقلى .. وبدأت أعيد النظر فى الموضوع كله .

ـ وبدأت تصدق ؟!

ـ وبدأت اصدق .

ـ وبدأت تحفر بالفعل ؟!

ـ وبدأت أحفر بالفعل .. على العموم لن أخسر شيئا .. انا أحفر فى بيتى وفى أرضى وفى شقتى .. واذا لم أجد شيئا .. أعيد الأرضية لحالها والبلاط لمكانه .. ويادار ما دخلك شر .

ـ وناوى ان شاء الله تزور الاسكندر وحدك بدون أن تأخذ معك أخاك الطبيب الشرعى الهمام الذى سوف يكشف على جثة الاسكندر ويطلع على العالم بأسرار تغير التاريخ .

ـ ايدى على أيدك بشرط الا يخرج السر خارج هذا الباب .

ـ السر فى بير ياأمير .

ـ قلت الكلام المفيد .. البير هو هدفنا من الآن . نحفر عليه معا .. فأسى الى جوار فأسك .

وبدأ الاثنان يحفران معا فى صبر شديد واهتمام بالغ ، وقضيا الليل يحفران .

وطلع عليهما النهار وقد ناما على الأرض من التعب ، وحينما دخلت عليهما الشمس من النافذة المواربة كانا مايزالان يتنفسان بعمق ويتقلبان من الاعياء . وكان النهار قد انتصف .. وأمامهما شهر أجازة .. ولا قلق على شىء .

وكان ناجي أول من فتح عينيه .

وراح يهز صاحبه ويقول وهو يتثاءب :

ـ صاحبك زارنى الليلة فى المنام .

ـ غريبة .

ـ وكلمنى باليونانى .

ـ ومن يكون هذا اليونانى العجيب ؟!

وقال ناجي وهو يضحك :

ربما يكون الشيخ فيليب المقدونى .

ـ أبو الاسكندر .. غير معقول . فيليب المقدونى الوثنى .

ـوأى غرابة فى هذا ؟! ألم يتنبأ ملك مصر الوثنى فى الحلم بالسنوات السبع العجاف فى سورة يوسف ؟! ان الله يفيض بكراماته على الكل .. مؤمنين وكفرة .

ـ صحيح .. عندك حق .

وأخذا يلتهمان فطورهما فى نهم ، ثم عادا الى الحفر .. وشمرا السواعد ونزلا بالفأسين على الأرض يقلبانها فى همة وشوق وكأنما ينزعان ختما مطلسما من على كنز دفين .

وكلما اتسعت الحفرة .. ازدادا حماسا .

وكانا قد تجاوزا الأرض الطينية .. ووصلا الى الأرض الصخرية وازداد الحفر صعوبة .. ولكنه أيضا ازداد اثارة .

وكانت تقفز من حين لآخر ايقونة .. وأحيانا حفرية لسمكة او قوقع واحيانا مشط أثرى .. وأحيانا مكحلة .

كانت الأرض فى تلك المنطقة أشبه بكراسة مذكرات لعدة عصور بعضها فوق بعض .. عصر اسلامى .. وعصر قبطى .. وعصر رومانى .. وعصر بطلمى .. وعصر يونانى . كانت أشبه بمخطوط مثير . كل صفحة فيه تحفل بتاريخ ملوك وسير أباطرة وقصص بطولات وحروب ..

وكان ناجى كلما ضرب بفأسه وتصاعد الغبار يقول فى شرود : انى اسمع نفير حرس كليو باتره ، ووقع خطواتها الهامسة على الارض .

وكان يخيل لزميله أنه سينحنى ويقبل الأرض بين يديها .

كانا يحلمان وقد انفصلا تماما عن العالم الخارجى بأزماته ومشاكله وهمومه .. وكأنما كانا يركبان عربة الزمن ويرجعان بها وثبا مع كل ضربة فأس ليفتحا أبواب العالم القديم بابا اثر باب .

وتدريجيا تحول عالم الحاضر الى ضباب وظلمة .. وأضاءت الأحلام عوالم الماضى السحرية فجاءت تسعى فى أبهة الخيال لتداعب الأيدى اللاهثة التى تحفر وتحفر وتحفر .

ومضت أيام .. وليال .

ولم يصلا الى شىء .

ولكنهما كانا يزدادان يقينا بأنهما سائران الى شىء ما .. وأنهما على الطريق الصحيح . كانا يعثران بين حين وآخر على اثر يكسر الرتابة .. تحفة برونزية أو مدونة بردية .. فيبدأ الدكتور ناجى يفك طلاسمها ويكتب فى كراسته ترجمة دقيقة لما فيها .

وكانا يكتبان كل شىء وبتفصيل علمى حتى لاتفوتهما فائتة .

وفى اليوم الواحد والعشرين من الحفر .. انهار التراب فجأة وسقطت الفأس فى فجوة .. وحينما انقشع الغبار ظهر سرداب تحت الفجوة وتدلى ناجى بحبل ونزل الى السرداب ، وبعد دقائق عاد ليقول فى ذهول .. انه ليس سردابا ولكنه شارع .. شارع تحت الأرض .. شارع عجيب فيه فجوات تهوية .. شارع مبلط .

ودب فيهما الحماس . واشتعل الفضول .

وكانت الخطة أن يأخذا معهما تموين عدة ايام من الطعام والشراب ، وأن ينزلا بحبل وأن يسيرا طوال الوقت بصحبة الحبل . حتى لايتوه منهما طريق العودة .

وحمل كل منهما حقيبة الزاد على ظهره وأدوات الحفر ومصابيح كهربائية وكاميرا وما أن سارا بضع دقائق حتى تفرع بهما الشارع الى شوارع ومفارق وأزقة وميادين .

كانا فى مدينة كاملة تحت الأرض .. مدينة بطلمية .. من أيام البطالسة . وعثرا على بئر سقاية .

وسقط ضوء البطارية على شىء يبرق .. اتضح انه فستان ملون ملقى فى عرض الطريق .

وانحنى بكر على الفستان .. كان باليا ومتآكلا ومفتوحا من الصدر وبداخله جثة .

واخذ بكر يفحص الاسنان والفك والضلوع .. وكانت مازالت مغطاة بالجلد .. ونظر الى الأظافر المطلية .. والى الشعر . وقال لناجى :

- أتذكر الفتاة التى كانت تسير مع خطيبها فى أحد شوارع الاسكندرية وسقطت فى بالوعة واختفت ولم يعثر لها على اثر وكتبت عنها الصحف حينذاك .. وقال البعض ان الجن خطفها ..

- نعم .

- انها هى .. ان تاريخ الوفاة ينطبق على تاريخ الحادثة بالضبط . وشق الفستان من على الصدر وظهر جرح قطعى قديم على الجلد الجاف فوق القلب . وصاح بكر :

- انها قتلت .. انها جريمة قتل وليست جريمة خطف او اختفاء . وليست من فعل جن بل من فعل قاتل .

- وأين كان القتل ومتى ؟!

- هذا أمر يحتاج الى فحص طويل ودراسة .. ولكن أغلب الظن أنها قتلت ثم ألقى بها فى البالوعة .. ثم سقطت وتدحرجت الى هذه السراديب من خلال شبكات المجارى القديمة .

ـ ومن ادراك . . ربما انها سقطت سليمة . . وقتلت هنا فى هذه المدينة التى نسير فيها تحت الأرض .

ومرت بجسد الاثنين رجفة وراحا يتلفتان بالمصابيح فى كل اتجاه . وأمسك كل منهما يد الآخر وكانت باردة كالثلج .

وعاد بكر ينحنى على الجثة ويفحصها بدقة واناة ثم وقف وهو يرتجف .

ـ معك حق . . ان القتل غالبا حدث هنا . هناك شواهد تدل على ذلك .

وأصاخ بأذنيه فجأة .

ـ أتسمع صوتا .

ـ نعم . . أسمع شيئا كالهدير . . ربما كان البحر . . ان البحر فوقنا . أين نحن والبحر . ان البحر بعيد .

ـ أنسيت أننا قطعنا مسافة طويلة فى هذه السراديب ؟! . ونظر بكر الى البوصلة .

ـ اننا نسير شرقا والبحر غربا . . ان الصوت صادر من مصدر اخر .

ـ ربما كان صوت المقطورات على ارض الكورنيش .

ـ لا اظن . ان ارض الكورنيش بعيدة . ولكن الصوت قريب . . انه من هنا .

ـ تقصد من داخل السراديب ؟!

والتصق الاثنان معا فى رعب . . وقال ناجى بصوت مرتعد :

ـ اعتقد ان من الافضل لنا أن نعود أدراجنا .

ـ ليس قبل أن تنتهى المهمة . . ان الزاد لم ينفد بعد وأمامنا عمل طويل وشاق .

ـ أى عمل ونحن على هذه الحالة من الرعب .

ـ لايوجد سبب حقيقى للرعب ياصاحبى . . انها مجرد شكوك وأوهام .

ـ واذا صدقت الشكوك ؟!

ـ اذا صدقت سيكون طريق العودة خطرا كالطريق الآخر . . وأى حركة سوف تصبح مثل الأخرى سواء فى الخطر .

ـ وما العمل ؟

ـ العمل أنه مادام الخطر قائما فى جميع الاتجاهات . . فالحل الأمثل هو أن نمضى فى مهمتنا ولانضيع الوقت .

ـ معك حق .

وكان الصوت يبدو لهما احيانا من فوق ، واحيانا من الامام ، واحيانا من الخلف ، واحيانا من الشمال ، واحيانا من اليمين .

وكان يبدو احيانا كهمهمة . واحيانا كصفير . واحيانا كطرق أو دق . . واحيانا كضجيج مختلط واحيانا كضجيج مبهم .

ـ أراهنك انه صوت مياه المجارى وهى تسيل منحدرة الى صهاريجها الأرضية.قالها بكر وهو يفرك يديه باطمئنان ويصفر . ولكن ناجى ما لبث ان قال مقاطعا :

ـ أنسيت أن هذه المنطقة من الاسكندرية مازالت تصرف فى البحر ؟!

ـ صحيح .

وعادت صفرة الخوف تزحف الى وجهه وهو يتمتم .

ـ ماذا يمكن أن يكون مصدر تلك الأصوات ؟!

ـ يمكن أن يكون حى سكنى مزدحم .

ـ أو مصنع .

ـ أو حى تجارى .

ـ او سوق .

ـ أو مظاهرات .

وضحك بكر وترددت اصداء ضحكته جوفاء مرعبة فى المكان وقال ناجى :

ـ يعنى ايه مظاهرات . . يعنى حصل انقلاب فوق . . يعنى حانطلع نلاقى صدام حسين .

فال الله ولافالك ياشيخ .

ـ سامع .

ـ وكان الصوت هذه المرة فيه نبرة واضحة كأنه كلام .

ـ هناك من يتكلم .

ـ ليس بالعربية .
وهمس الدكتور ناجى عالم الآثار الخبير فى اللغات .
ـ انها لغة يونانية .
وخلع حذاءه وحذا الاخر حذوه حتى لايسمع لخطوهما صوت . . ونكسا المصابيح وكانا يقتربان شيئا فشيئا من مصدر الاصوات .
كان بينهما وبين مصدرها جدار رقيق .
وظهرت النبرات جلية .
وسمعا أسماء . . تيودوراكيس . . وستافروس . وينى . والاسكندر .
وقال بكر وهو يرتجف :
ـ الاسكندر قام من قبره . . هذه مصيبة .
وأسكته ناجى هامسا قائلا :
انه ليس الاسكندر المقدونى . ان اللغة التى يتخاطبون بها هى اليونانية الحديثة الدارجة وليست اليونانية القديمة . . وهم يتحدثون عن الصنف . . والتوريد . والدفع عند الاستلام واسعار البضاعة المتفق عليها مع البارون . . وحقيبة فيها ٢ مليون دولار . . مقدم حساب . . انها عصابة تهريب عالمية . . وهى تستخدم هذه المدينة البطلمية تحت الارض مخبأ للكوكايين والهيروين والماكستون فورت والمورفين . . ولو عثروا علينا سيكون مصيرنا القتل فورا مثل الفتاة المسكينة .
ـ وما العمل ؟
ـ هس . انهم يقولون ان موعد الاستلام غدا الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فى حضور المأمور .
ـ مأمور مين .
هس . . الحل هو الهروب من أقرب مخرج . وابلاغ البوليس . . لا ليس البوليس وانما وزارة الداخلية . . فالبوليس المحلى قد يكون متواطئا . . الحكاية فيها مئات الملايين .
ـ يعنى ايه .
ـ يعنى قتلك لن يساوى نكلة .
ـ ياخبر اسود . والعمل . . نرجع من سكتنا .

ـ لا . . طريق العودة سيكون طويلا من تلك السكة . . وليس عندنا وقت .
ـ والحل ؟
ـ اعتقد ان هناك مخارج كثيرة ، وان جوارنا مخرج قريب . . نطفىء مصابيحنا ونجرى بسرعة فى نفس الطريق حتى نلمح ثقب ضوء فى السقف فيكون معناه بالوعة .
واطفآ المصابيح لتوهما وأسرعا يجريان فى الظلام كزوج من الفئران المذعورة . . ولاصوت سوى صوت انفاسهما ولمس اقدامهما الحافية على الأرض .
وكان كل منهما يشعر بقلبه يدق فى أذنيه .
وشعرا بعائق كفأهما على الأرض .
كان السرداب قد استدار الى اليسار فى الظلام ولم يلحظا تلك الاستدارة فاصطدما به بشدة .
وقاما من الأرض يتحسسان طريقهما . . واستدارا مع السرداب وبعد خطوات ظهر هلال رفيع من الضوء يتألق فى السقف ، انها البالوعة اخيرا .
وكان غطاء البالوعة قد ازيح الى الجانب قليلا ليعطى هذا الهلال الرفيع من ضوء الشارع كاشارة .
وأضاء ناجى بطاريته .
كان هناك سلم منحوت فى الصخر وصاعد الى فوهة البالوعة .
لقد اعدت العصابة عدتها لكل شيء . وحسبت حسابها لكل شيء .
ولم يضع ناجى لحظة واحدة بل اسرع يجذب صاحبه من عنقه . وصعدا السلم وازاحا غطاء البالوعة وخرجا . . كان ضوء الفجر قد امتد وادركا من الوهلة الاولى انهما بحى الأنفوشى . وأن فتحة البالوعة قد القت بهما الى قرافة الأنفوشى وكانت شواهد القبور حولها فى كل مكان .
ونظر كل واحد الى وجه صاحبه .
كان وجهاهما شاحبين ميتين من الرعب . . وأصابعهما ترتجف ، واسرعا فى أول تاكسى صادفهما الى البيت .

وكان أول ماصنعا هو جذب الحبل الممدود بطول السرداب حتى لايكتشف أحد أثرهما .. ثم اسرعا بابلاغ الخبر الى أعلى المستويات فى جهات الأمن .

★★★

وفى تلك الليلة المشهودة فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل تم القبض على اكبر تشكيل عصابى أجنبى يتاجر فى الكوكايين والهيروين ، كما تم القبض على شخصيات كبيرة متواطئة اثناء تسليمها لحقائب نقد اجنبى بلغت ٢ مليون دولار فى رزم مالية جديدة .

ونشرت الصحف أخبار الحادث فى صدر صفحاتها ، ورسوما للمدينة البطلمية ولسراديبها العجيبة تحت الأرض .. ولكنها لم تنشر أسماء الدكتور ناجى ولا الدكتور بكر ولا دورهما فى التبليغ كتعليمات أمنية من الجهات المسئولة .

وكان نصيبهما من المكافأة مائة الف دولار .. خصصاها بالتمام للتنقيب عن قبر الاسكندر .. وللمضى فى الحفائر .. تحت الغرفة العجيبة .

وذكرت وكالات الانباء العالمية فى نشراتها لجميع الجرائد ومحطات الاذاعة والتليفزيون تفاصيل الحادث وقصة اكبر مخبأ للسموم البيضاء وكيف تجاوزت المضبوطات عدة اطنان فى اكبر حملة ضبط فى تاريخ المخدرات ،كيف استخدم المهربون عددا من السراديب الجهنمية تحت الأرض يعود تاريخها الى أيام البطالسة .

وانفجرت قضية الفتاة المختفية من جديد وفتحت ملفاتها واستؤنف التحقيق .

★★★

وفى تلك الليلة المشهودة .. لم ينم الدكتور ناجى البغدادى ولا الدكتور بكر وظلا يهذيان طول الليل .

قال بكر وصوته مايزال يرتجف :

ـ مازلت لا اصدق ما حدث .. وكأنى أرى خيالات أو أشهد كابوسا

وتلك الأحلام .. ماذا كانت تعنى وما حقيقة مدلولها ؟ فيجيب ناجى وكأنه يهذى هو الآخر :

ـ معناها ان الاسكندر الأكبر قد أقض مضجعه هؤلاء الأحفاد المهازيل من حثالة اليونان الذين اتخذوا رحاب مقبرته مخزنا للمخدرات ومباءة للاجرام .

ـ اما زلت مصرا على اننا بصدد قبر الاسكندر ؟

ـ أنا متأكد ان هذه السراديب لها صلة ما بقبر الاسكندر .. وان الرؤيا صادقة ، وأن روح الاسكندر مازالت تنادى علينا لتطهير مقبرته من تلك الأيدى الآثمة .. وكشفها وصيانتها واظهارها للوجود .

فيقول بكر وقد أصبح مستعدا لتصديق أى شىء .

ـ أيكون الاسكندر نفسه هو الذى يأتيك فى المنام . أم هو فيليب المقدونى ؟!

فيجيبه ناجى فى ثقة :

ـ لا أظنه فيليب المقدونى . فلم يكن الاسكندر وأبوه فيليب على وفاق .. بل كانت بينهما كراهية وغيرة ومؤامرات .. ولايهم فيليب المقدونى أن يدنس قبر أبنه .

أراهنك ياعزيزى انه الاسكندر بنفسه .

وحكايتنا لم تنته بعد .

وانما لها بقية .

وربما كانت بقية أكثر اثارة .

وتبددت ذبذبات الصوت مع دخان التبغ الذى يتبعثر حلقات فى الهواء ، و سرح الاثنان فى نظرات ضبابية فى مستقبل ملىء بالمفاجآت .



الجـــراح الخفـــــى

كان يوما قائظا من أيام أغسطس ، وكنت أبلع ريقى بصعوبة وأجد الما شديدا فى البلع . شكوى تعاودنى كل سنة مع تغير الجو . . وقال الطبيب : احتقـان وتضخم بـاللوزتـين . . ولا شفـاء الا بالاستئصال الجراحى . . ومع ذلك اعتذر بلطف عن اجراء الجراحة . . قال لن تحتمل البنج الكلى . . نفس العذر المتكرر الذى كان يقوله كل طبيب بعد أن يضع سماعته على القلب . . ثم يرفع وجهه قائلا . . ان البنج الكلى مجازفة غير مأمونة .

وأسقط فى يدى . . وأسلمت أمرى لله . . حتى التقيت بصديقى القطرى الذى قال لى . . ولماذا لا تذهب الى فلان . . قلت ومن هو فلان . . قال . . جراح روحانى . . يستعمل الأساليب الروحية فى عملياته ويستأصل الأورام ويخرج الحصوات بدون مشرط وبدون اسالة دم . . بمجرد اللمس . . يضع يده فى فمك ثم يستخرج اللوزتين المريضتين للتو واللحظة بدون بنج وبدون ألم ويريهما لك . . قلت غير معقول . . قال الم تسمع بجراحى الفيليبين ؟ قلت هذا كلام جرائد . . قال بل هى حقيقة وقد تدرب صاحبنا هناك وأخذ سر المهنة من أهلها فى الفيليبين وعاش هناك بضع سنوات وقام بجولة فى آسيا وفى أدغال أفريقيا . . وهو رجل عجيب . . قلت لابد أن يكون عجيبا فعلا ولكنى

لا أصدق هذا الكلام ولا يدخل دماغى . . قال أنت تعرف ولا شك زميلنا الدجوى ، قلت نعم وهو صديق عزيز . قال لقد أخذ أطفاله الثلاثة لصاحبنا واستأصل لهم اللوز فى جلسة واحدة وشفوا جميعا وكان ذلك فى حضورى . . قلت مأخوذا : شيء مدهش .

وظلت حكاية هذا الجراح الخفى تعشش فى رأسى وتلح على خيالى ثم قررت فى نفسى شيئا . . وبعد دقائق كنت أطرق باب الدجوى . . وآخذه بالحضن كالعادة . . وأسأله عن أطفاله . . وقال لى أنهم جميعا بخير بعد أن أجروا العملية العجيبة وهم يلعبون الآن فى الصالة . . ودخل الأولاد يقفزون ويضحكون ، ولكنى لاحظت أن أفواههم مفتوحة وأنهم يتنفسون منها . . وداخلنى شك فاستأذنت من صديقى أن أصحبهم لفحص روتينى أطمئن به على الجراحة .

وفى غرفة الكشف . . وما كاد الطبيب يضع خافض اللسان ويلقى بضوء المنظار الى داخل الفم . . حتى كانت المفاجأة . . اللوزتان كل واحدة بحجم عين الفيل تسحان بالصديد .

الأطفال الثلاثة كلهم بهذه الحال !

لم يستأصل شيء . . ولم تكن هناك أى جراحة ظاهرة أو خفية . . وانما تحسنت الأعراض بالايحاء والوهم !

نحن اذن أمام دجال عظيم .

وتيقظ فضولى البوليسى القديم . . وقلت فى نفسى لابد أن أعرف حكاية هذا الرجل .

وقلت لصاحبى القطرى . . ايدى على ايدك خذنى الى صاحبك ليستأصل لى اللوزتين . . لم يعد هناك حل سوى الأصابع الخفية لتريحنى مما أنا فيه . .

وفى العيادة المكتظة فوجئت بالضوء الخافت والديكورات الأفريقية والأقنعة البدائية المعلقة على الجدران وخفاش ضخم من خفافيش سيريلانكا يبسط جناحيه على الباب وينظر الى الزبائن بعينيه الميتتين . . والجو ثقيل مقبض . . وأغلب المنتظرات نساء وأكثرهن ارستقراطيات تلمع على صدورهن وفى أيديهن الأساور والماسات .

قلت فى نفسى . . سيجرى كل هذه العمليات الليلة . . بدون بنج وبدون أطقم تخدير وبدون مساعدين . . لقد غلب مستشفى القصر العينى . .

وحينما جاء دورى ودخلت مترددا فاجأنى رجل طويل يلبس بدلة سوداء . ورباط عنق أسود ويحيط ذراعه بشارة سوداء وتذكرت ما قاله صاحبى من أن الرجل يعيش فى حداد على زوجته التى خطفها أهل الأرض وأنه يتصل بالعالم السفلى الآن عن طريقها . . وأن كل الجراحات تتم بمساعدتها .

وكان الشيء اللافت للنظر هما عينيه ذواتى البريق المغنطيسى .

وشددت من عزمى حتى لا ينومنى واستحضرت انتباهى ورحت أركز فى كل حركة وفى كل لفتة حتى لاتفوتنى شاردة ولا واردة من هذه الجراحة العجيبة ، ولكن الأمر كان أسرع مما تصورت فما كاد يقول لى افتح فمك ثم يدخل فى فمى يده الفارغة تماما حتى أخرجها وبها قطعتا لحم تقطران دما دافئا .

وحرصت أن آخذ قطعتى اللحم فى يدى أقلبهما وانا مشدوه .

انهما ليستا اللوزتين قطعا . . وليستا نسيجا بشريا . . ولعلهما لحم شاة أو ضأن مذبوح لتوه . . ولكن كيف ومن أين أتى بهما بهذه السرعة .

وكان استنباطى فى محله . . فالدم لم يكن دما بشريا . . وكذلك النسيج الحى . . كلاهما حيوانى . . هكذا جاء تقرير المعمل الباثولوجى . . لكن أهم من ذلك ما جاء فى التقرير من أن النسيج الحى لحيوان ذبح لساعته . . وهو نفس ما لاحظته . . فقد كان الدم على يدى دافئا لم يتجمد ولم يتجلط بعد . . كيف حدث كل هذا فى ثوان ؟!!

وحينما كنت أشد على يده مودعا وشاكرا لاحظت على المكتب عددا من الكتب عن الفودو .

والفودو هو السحر الأسود واستخدام القوى السفلية فى لغة قبائل الزاندى الأفريقية . .

وقضيت الليلة بطولها أقرا فى مجموعة من كتب الفودو استعرتها من المكتبة .

ونحن كمسلمين نؤمن ولا شك بأن هناك مخلوقات أخرى غيبية هى الجن والنفوس السفلية ، ونعلم أن لهذه المخلوقات النارية القدرة على جلب الأشياء من أماكن بعيدة فى سرعة لانعهدها فى عالمنا البشرى .. الم يذكر القرآن عن ذلك العفريت من الجن الذى قال أنه يستطيع أن يجلب عرش بلقيس من اليمن الى مجلس النبى سليمان فى أرض كنعان فى ساعة من نهار ..

الجن اذن حقيقة كما أن الميكروبات التى لانراها حقيقة .

ولكن الجن بحكم عداوته للانسان منذ الأزل لا يأتى للانسان بخير ولا يدله على خير ولا ينفعه ، وهو أيضا لا يملك التنبؤ بالمستقبل حتى لو أراد .. ودأبه دائما مع الانسان أن يؤذيه ويكذب عليه ويسخر منه ويحثه على الكفر .

وأخبرنا القرآن أنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا .. ونصحنا بألا نتبع ما ليس لنا به علم .. وأن نستهدى عقولنا وحواسنا وبصائرنا .. لنصل الى الحقائق ولا نستهدى جنا ولا عفريتا ولا روحا سفلية .

وفى كتب الفودو أن الجن لا يكون فى خدمتك، الا اذا كنت أنت أولا فى خدمته ، واذا تعاونت معه على الفساد والافساد ..

وساحر الفودو يقتل ضحاياه من الأطفال إرضاء لشياطينه وينزع أعضاءهم التناسلية ويطحن عظامهم وأسنانهم ليجعلها قرابين مودة يقدمها الى النفوس السفلية لتكون فى خدمته. فاذا انعقد هذا الحلف الشيطانى بين الاثنين أصبحت رهن اشارته تجلب له ما شاء فى لحظات ..

هكذا تقول تلك الكتب القديمة ..

وصاحبنا الجراح الخفى يفعل ما يفعله بالاستعانة بالفودو .. كما يفعل اخوانه السحرة الأفارقة والأسيويون .. ولا يستبعد ان يكون قد درب على أساليبهم .

وقد استقر فى ظنى أنه منهم ..

هكذا تقول عيناه والهالات السوداء حول رأسه والجو الثقيل المقبض الذى يخيم على عيادته والخرزة الزرقاء الافريقية التى يضعها فى عنقه .

ولكن ما حكاية زوجته التى يلبس عليها الحداد ؟

كان هناك عدد كبير من الأسئلة فى حاجة الى جواب .. فالرجل ليس مصريا وانما هو سودانى من جوبا من جنوب السودان ، وعائلته أصلها من قبيلة الدنكا وهو يؤمن بعقائد الدنكا الوثنية ويتبرك بطلاسمها وأيقوناتها .

وتاريخه فى مصر لا يزيد على بضعة شهور .. وقبل ذلك لا يعرف أحد شيئا عن حياته ولا عن ماضيه .. وأغلب الظن أنه سواح جوال لا يقر له القرار فى مكان .. وهو يتكلم الانجليزية بطلاقة ويتكلم العربية بلكنه سودانية ويقرأ كثيرا ويحتفظ بغرفة مغلقة فى عيادته لا يدخلها أحد .. هى الغرفة التى يزاول فيها طقوسه .

وقد تعرف بزوجته المصرية بعد مجيئه للقاهرة بأيام وكان يعالجها من حالة صرع .. ولم يشهد زواجهما الا بواب العمارة النوبى .. ثم اختفت بعد الزواج بأيام .. ولم يظهر لها أثر ..

ويقول بواب العمارة النوبى أنها كانت جميلة فائقة الجمال .. وأن الرجل حزن عليها حزنا شديدا ولبس عليها الحداد لم يخلعه الى اليوم .

وأهل الزوجة السذج يصدقون أن الجن الأرضى اختطفها وأنها تزوره خلسة وتساعده فى عملياته وأنها حية ترزق تحت الأرض .. وهم مفتونون بالرجل ويترددون على عيادته للبركة وللعلاج .

وقابلت الأم وهى من المنصورة وحكت لى أن ابنتها تزوجت من السودانى سرا ولكنهما تصالحا بعد ذلك وتزاوروا وارتاحت الى الرجل الذى رأت فيه زوجا كريما عطوفا .. وقالت إن ابنتها كانت تعانى منذ طفولتها من لمسة أرضية وأن هذه اللمسة كانت سبب اصابتها بالصرع وانصراف العرسان عنها رغم جمالها .. وأن الرجل استطاع أن يشفيها بالفعل .. ولكن ..

وتبكى وهى تنهنه ..

ـ ولكن قدر الله نفد .. وخطفها زوجها الأرضى .. انهم يتنافسون عليها ثم تردف فى ايمان عجيب :

ـ ولكنها تزوره من حين لآخر .

ـ تزور مَنْ .

- تزور السودانى وتساعده فى عملياته .
- هل رأيتها عنده ؟!
- لم أرها . . ولكنه يقول ذلك . . وانا أصدقه . . فهو رجل مبروك وعنده خدام أرضيين .

وسألت عن الأب . . فعادت تبكى وتقول بين دموعها . . انه مات فى حادثة من عشر سنوات وانها هى التى ربت الأولاد من ارث بسيط . .

- وكيف مات الأب
- دهمه قطار حينما كان يعبر المزلقان . . ولكن السودانى استطاع ان يسمعنى صوته فى جلسة روحية . . انه رجل عجيب . . انه رجل متصل . .
- هل دخلت غرفته المغلقة بالعيادة .
- انه لايسمح لأحد بدخولها . . لأنه يلتقى فيها بالخدام . . ويقول إن من يدخلها يفقد عقله .

واثار الكلام فضولى ورحت أتحين الفرصة لدخول تلك الغرفة . .

وقلت فى نفسى . . اتقرب الى التمورجى واحاول ارضاءه .

وجاءت اللحظة المناسبة حينما حزم السودانى حقيبته لسفرة قصيرة فى الخرطوم . . وجئت ليلا وفتحت الباب بمساعدة التمورجى لأكون أول من يدخل هذا المحراب العجيب .

كانت الغرفة عارية الا من ستائر بها نقوش وطلاسم افريقية . . وأقنعة . . وثعابين وسحالى محنطة . . وعلى الرف درقة سلحفاة مليئة بمسحوق أبيض . . ومجمرة . . وجفنة بها بخور نفاذ كريه الرائحة . . وكرباج سودانى مدلى من السقف . . ومخطوطات مكتوبة بحبر أحمر على رق من الجلد . . وعنقود من الأحذية الصغيرة جدا معلق بالجدار . . وشيئا كاللبان الذكر فى برطمان . . وطبل افريقى كبير . . وقرون وعل .

ولم يستطع التمورجى أن يخطو داخل الغرفة من الخوف . . أما انا فلبثت افتش فيها لدقائق وانا مذهول ، وشعرت بدمى يتثلج من الرعب فاكتفيت بتلك النظرة السريعة وأخذت أحد المخطوطات وبعضا من المسحوق الموضوع فى درقة السلحفاه وبضع حبات من اللبان الذكر وحذاء من تلك الأحذية الصغيرة جدا وأسرعت بالخروج .

وفى طريق العودة أرسلتها جميعا للمعمل . . واحتفظت بالحذاء الصغير جدا فى جيبى أداعبه بأصابعى من وقت لآخر .

وفى بيتى رحت أتأمل هذا الحذاء الصغير جدا . . فيم يكون استعماله . . هذا حذاء لا تلبسه الا جنية صغيرة جدا . .

وتذكرت الرقصات الافريقية . . والراقصين الذى يلبسون الاقنعة والقرون ويضعون حزاما من هذه الأحذية الجلدية الصغيرة ويرتعشون مع الطبل فتحدث تلك الأحذية بارتعاشها قرقرة عجيبة هى جزء من طقوس الصلوات الوثنية . . وتقديم القرابين . . وغالبا ما تكون تلك القرابين أضحيات بشرية . .

وقبيلة الزاندى التى كان يعيش بينها صاحبنا كانت الى سبعين سنة مضت من آكلات لحوم البشر .

وانتظرت بصبر نافد نتيجة التحليلات المعملية .

ومرت أيام لتأتى المفاجأة . . فالمسحوق المحفوظ بدرقة السلحفاة . . هو مسحوق عظام وأسنان آدمية . . والمخطوط مكتوب بدم آدمى . . وحبات لبان الذكر ليست لبان ذكر وانما غدة درقية آدمية مجففة لطفل صغير . .

ولم يكن هناك وقت ليضيع . . فأبلغت النيابة وقدمت بيانا تفصيليا مكتوبا بشهادتى وتسجيلات بالأحاديث التى أجريتها مع جميع الأطراف .

وفى حملة تفتيشية تم اقتحام الغرفة ونزعت أخشاب الأرضية لينكشف المشهد الأخير . .

جثه الزوجة قد نزعت أسنانها وأعضاؤها التناسلية وعظام الحوض والفكين واللسان والعينان .

وقال الطبيب الشرعى أنها ماتت مسمومة . . وأن تاريخ قتلها يوافق يوم اختفائها .

وتم القبض على الجراح الخفى ساحر الفودو فى مطار القاهرة لحظة وصوله من الخرطوم . .

وحينها ووجه بالوقائع أنكر فى البداية . .

وحينما دفع له الضابط بتقرير المعمل عن الدم الذى كتبت به المخطوطات وكيف أنه مطابق لفصيلة دم القتيلة . . وأن اللسان المجفف من نفس فصيلة القتيلة . . انهار تماما واعترف أنه قتلها بسم الاكونيتين . . وأن ما فعله بجثتها هى طقوس الفودو الوثنية التى يؤمن بها . . وأنه فعل ذلك من أجل علاج المرضى .

وساعتها قلت له فى دهشة :

ـ ولكنك لم تكن تعالج المرضى . . ولم تكن تستأصل شيئا ولا كنت تقوم بأى جراحة بل كنت تقوم بتمثيلية تجلب بها جذاذات من اللحم من أى مكان .

ـ لم أكن أنا الذى أجلب . . بل هم الذين كانوا يجلبون لى بقدراتهم الخارقة هذه الجذاذات ساعة الذبح . . وكانوا يأتون بها دافئة تقطر دما .

ـ ليسخروا من مرضاك وتسخر أنت معهم وتقبض الثمن وتتركهم على وهم أنهم شفوا .

ـ لقد أعانونى بقدراتهم الخارقة .

ـ وهل لهم القدرة الآن على انقاذك ؟!

وسكت . . وطال سكوته . . وهذه المرة لم يستطع الجن ولا الخدام الأرضيون أن يفعلوا شيئا ولم يظهر أحد منهم لنجدته

وبدأ مشواره الأخير . .

وحده . . بلا معين . . وبلا خدام من فوق الأرض أو تحتها .



مـــات وهـــو يضحـــك

اليوم عيد ميلاده .. وحينما تدق الساعة العاشرة صباحا .. يصبح عمره ٥٦ سنة .. لا زوجة ولا أولاد .. صيدلى فى الأرياف .. مكسبه على قدر نفقته .. يتحرك ببطء من أثر روماتزم مزمن وسكر وضغط دم مرتفع وتصلب شرايين ونزيف متكرر بالعين اليسرى .. آخر مرة ذهب الى الطبيب لفحص قاع العين كان يشكو من صداع حاد .. وقال له الطبيب .. لابد من عمل أشعة مقطعية للمخ .

وسافر الى القاهرة لعمل الأشعة وعاد يمشى ببطء أكثر وفى يده حكم بالاعدام .

لقد كشفت الأشعة عن وجود ورم بالمخ .. والجراحة مستحيلة .. وأيامه الباقية معدودة .. كانت الورقة التى يحملها أشبه بترخيص بالدفن ..

وطوال الطريق وهو يطل من نافذة القطار عائدا الى قريته .. وأعمدة التلغراف تجرى بسرعة أمام بصره الكليل .. كان يستعرض عمره الخاوى الذى لم يصنع فيه شيئا ..

أيام الطفولة وهو جالس فى حجر أبيه على شاطىء الترعة .. وأبوه يدلى بالسنارة فى الماء وينتظر الساعات فى صبر عجيب حتى يظفر ببلطية أو كركور .. وحينئذ تكون الفرحة ،ويعودان بالصيد الثمين الى البيت وتجتمع الأسرة حول الكركور لتشويه على الفحم وتتقاسمه وتأكله بلذة وهى تعصر عليه الليمون .

وأيام الصبا والبسكليتة التى اشتراها له أبوه لنجاحه فى الابتدائية ..
كانت البسكليتة الوحيدة فى القرية .. وكان الكل يحسده عليها وهو يجرى بها الى البندر كل يوم .. ويجلجل بأجراسها المعدنية .. ثم يعود آخر النهار يحمل عليها حقيبة كتبه ومشتروات البندر وأعزها علب الشيكولاته النسلة .

وأيام الثانوية .. ولعب الكورة .. والسبق .. وأفلام طرزان ..
وروبن صن كروزو .. ذلك الفتى العجيب الذى تحطمت به السفينة والقته على شاطىء مهجور لجزيرة مهجورة وبدأ يصنع لنفسه عشا من الجريد وفروع الشجر ، وكانت أسرته الوحيدة هى العصافير والغزلان وكلبه الوحيد الذى لم يفارقه .. ومغامراته اليومية مع وحوش الغاب ..

وظلت هذه الجزيرة المهجورة .. والوحدة بين وحوش الغاب هى الصورة التى تلح عليه وتطارده .. والاحساس الدائم الذى يسيطر عليه .. كلما تلفت حوله فى العالم الذى يشبه الغابة .

وانفجر الدم فجأة ليغطى على السيناريو ويصبغ الذكريات بلون أحمر مشتعل .

الأب القتيل .. برصاصة غادرة من الخلف .

والأعمام المتهمون لخلاف على الأرض .. والارث الملعون ..
ومستندات مزيفة .. وتحقيق وبوليس ونيابة ومحامون .. ثم براءة وافراج لعدم كفاية الأدلة ..

ويخرج القتلة أحرارا ليعاودوا الاجرام

لقد نهبوا الأرض .. وازدادوا ثروة .. وازدادوا قوة .. وأصبحت لهم مخالب .

وهم اليوم سادة البلد ينحنى أمامهم الكل ويخطب ودهم الكل
وهم نواب فى برلمان فاروق
وهم فى الاتحاد الاشتراكى أيام عبدالناصر
وهم فى مجلس الشعب .. ثم فى مجلس الشورى .. ثم نجوم وسادة فى الحياة العامة وأصحاب ملايين .. الكل يعلم أنها من المخدرات ولكن لا أحد يستطيع أن يفتح فمه .. ولا يملك أحد أى دليل .. لأنهم لايلمسون البضاعة ..

هم بارونات .. لهم وكلاء يقومون بالعملية القذرة .. أما هم فيغسلون أيديهم من كل شيء .. ويديرون عملياتهم من وراء واجهة من الشركات والتوكيلات التجارية ..

وهم وجهاء لايظهرون فى القرية إلا نادرا .
وأغلب الوقت هم فى جنيف وباريس ولندن وروما .. لاتعرف أخبارهم الا من الصحف ..

وأسند رأسه الى نافذة القطار وعادت مطارق الصداع تدق رأسه ..
وكانت أعمدة التلغراف ماتزال تجرى بسرعة ، وتتراقص امام عينيه كسراب فى بحيرة الصداع .. وفى الخلفية يبدو العالم كله أشبه بغابة تعوى فيها الوحوش .. وهو وحيد .. وحيد ..

وتطفو وجوههم واحدا واحدا فى ذاكرته ..
الآن قتلاهم بلا عدد .. وكلهم شباب تتصيدهم شبكة الادمان ..
فلا يخرجون منها الا فى توابيت .. أو الى مصحات عقلية .

وراح يمسح على رأسه المصدوع ..
لقد نسى تماما سنوات الجامعة فى القاهرة فى كلية الصيدلة .. ونسى تفاصيلها .
صورة أبيه القتيل لطخت هذه السنوات وأغرقتها فى وهج دموى ولونت شبابه بلون الدم ..
لم يستطع نسيان هذا الأب الطيب الحنون أبدا وظل يشعر دائما أنه مازال جالسا على حجره على شاطىء الترعة ينتظر غمزة السنارة وارتعاشة الكركور ورائحته على الشواية .. وطعمه بالليمون .. وفرحة الأسرة ..
وابتسامة الأب التى تشبه حضن حنان يضم كل شيء .. ثم الرصاصات الغادرة ونافورة الدم .

توقفت حياته عند هذه الصورة لم تبرحها ..
لم يستطع أن يتزوج .. لم يستطع أن يحب ..
لم يستطع أن يمتزج بالناس ويبادلهم الحياة
تجمد شيء فى داخله .. ثم وقع فريسة الأمراض .. وداهمته شيخوخة قبل أوانها .. وابيض شعره وهو مازال فى الأربعين .. ولم يفكر أن يبرح

القرية واكتفى بأن يكون صيدلى أرياف .. وتقلصت أحلامه الى حلول بسيطة متواضعة .. وكان يشعر بالفزع فى الأيام القليلة التى ينزل فيها القاهرة لقضاء المشاوير الضرورية .

كان الزحام والضوضاء وتدافع الاكتاف والهرج يصيبه بالفزع .. ويشعره بالغربة والانفصال وكأنه مخلوق آخر غريب .. أجنبى على هذا العالم سقط عليه من كوكب آخر .. كانت المدينة تبدو له قاسية فظة تنتهك عليه وحدته وخصوصيته .

وكان يسعى فى طرقاتها وقد أحاط نفسه بهذه القوقعة من الخوف والعزلة .. لاترتد اليه نفسه الا حينما يعود الى القرية ويسمع أنين السواقى وزقزقة العصافير على شجرة التوت الحانية التى تنام فروعها على نافذته .

وفى آخر النهار حينما يريح رأسه على الوسادة كان يؤلمه أن عمره الطويل وسنواته الثمانى والستينى لم تثمر شيئا .. الشجرة العجوز عند نافذته تثمر التوت كل ربيع ، ولوزات القطن الأبيض تغطى الحقل وزهر البرتقال يتوج الشجر .. وهو لم يثمر شيئا بطول ثمان وستين سنة

أيامه عقيمة .. وسنواته عقيمة .. لم يصنع بها شيئا ..

لقد قتل هو الآخر يوم قتل أبوه

قتلته نفس الرصاصة الغادرة من الخلف .. قتلت فيه الأمل والطموح والمستقبل .. ولم تبق منه الا شبحا

وكانت تراوده الرغبة فى أن يصحو يوما من هذا الموات .. وأن يفعل شيئا أى شىء يدل على أنه حى .

والآن لم تبق له الا أيام معدودة .. وربما ساعات معدودة .. وربما دقائق معدودة .. لا أحد يدرى .. فماذا تبقى له أن يفعل ؟

وكان القطار يبطىء فى سيره ويدخل المحطة .

وقام يتحامل على نفسه ويجر ساقيه .

ونزل الى المحطة فوجد أعلاما وزينات ولافتات ، وتذكر أنه يوم مشهود وأن رئيس الوزراء على وشك الوصول ، وان رجال التليفزيون والاذاعة يملأون القرية التى تحتفل اليوم بافتتاح مشروعات وهدان .. مائة فدان فواكه ومزرعة دواجن ومركز تربية عجول وثلاجات للعصائر ووابور طحين

وصناعات جبن وألبان .. وصور الحاج وهدان تغطى جدران المحطة وقد كتب عليها بالخط العريض .. المحسن الكبير .. والرجل المؤمن .. والمصلح العظيم .. والرائد الاجتماعى .. نائب القرية وراعيها الحاج وهدان ..

وما كان الحاج وهدان سوى البارون الكبير الذى ترك قصره فى باريس وعاد الى قريته ليكون نجم هذا الحفل الاعلامى وعريس هذه الزفة حيث يقف الى يمين رئيس الوزراء يتلقى التهانى والدعوات .

وما كان المشروع كله فى لغة أهل الحرفة .. الا محاولة لغسل أموال المخدرات .. وتنظيف للواجهة التى تتجمع عليها أتربة الاشاعات من وقت لآخر .. ولزوم الوجاهه ..

انه اذن العم العزيز .. ولقاء على غير ميعاد .. بعد أكثر من أربعين سنة من الحادث .

ومسح الرجل على رأسه المصدوع وهو يحاول أن يتذكر ملامح العم العزيز انه فى الصور يبدو شبابا .. فهل هو كذلك .

وذهب الى صيدليته وتكوم على الكرسى وغرق فى الذكريات .

لم يصح منها الا على أصوات الموكب .. ورتل العربات الفاخرة .. ثم عربة تقف أمامه وينزل منها السائق مسرعا ليقبل عليه طالبا نوعا من الاسبرين للحاج .

وقال الصيدلى فى حماس .. أنا اعرف الاسبرين الذى يستعمله .. وسآخذه له بنفسى .. واختطف العلبة وأسرع بها الى العربة ..

ووقف يناولها الى الحاج وهدان .

ـ مين ؟

ـ انت مش فاكرنى يا حاج وهدان .. انت نسيت صبحى .

ـ مش معقول تكون صبحى .. ده انت عجزت أوى .. وراسك بقت كتانه بيضة .

ـ من الأيام يا حاج

ـ انت مش حاتيجى تحتفل معانا والا ايه .

ـ حاجى طبعا .. ومعقول يفوتنى اليوم السعيد ده .

وانفلت الى اجزخانته . . ليحضر شيئا من درج مقفل يضعه فى جيبه ثم يعود مسرعا لينضم الى رتل العربات .

ووصل الموكب الى العزبة ، وكانت فلاشات الكاميرات تومض كالبرق الخاطف فى عتمة الغروب ، وكان الحاج يتأبط ذراع رئيس الوزراء ويتنقل به فى أرجاء مشروعه . . ومن لحظة لأخرى يتوقف ليشرح . . وتقدم أحد الصحفيين من رئيس الوزراء يسأله . . ورئيس الوزراء يبارك ويهنىء ويثنى على العمل الجاد .

ـ الحاج مثال عظيم للمواطن . . ولو كل واحد عمل زى الحاج كانت اتحلت كل المشاكل فى بلدنا . .

والحاج يشاور على الماكينات . .

المصنع ده انا جبته كله من المانيا الغربية . . والثلاجات كلها صناعة فرنسية . .ووابور الطحين انجليزى .ومصنع الأجبان هولندى .

وأصوات من كل مكان حوله :

ـ عظيم .
ـ عظيم .
ـ عظيم .
ـ هايل .
ـ همة مفيش زيها .
ـ وكل ده تم فى ١٨ شهر .
ـ ازاى .
ـ دى معجزة .
ـ ده سد عالى تانى .
ـ دى بلدنا حاتبقى اوروبا .
ـ ده احنا حظنا من السما .
ـ كل ده بنفس الحاج الكبير .
ـ ادعو للحاج الكبير يا رجاله .
ـ ربنا يخلى لنا الحاج يارب ويطول فى عمره كمان وكمان .
ـ ومين حايدرب الأهالى على الشغل هنا .
ـ فيه مهندسين وخبرا .

ـ ده انت ما نستتشى حاجة يا وهدان بيه
ـ كل شيء حايشتغل بلمسة واحدة للزرار ده . . كده هوه . . كله دلوقت داير . . أوتوماتيكى .
ـ مش معقول .
ـ هايل .
ـ عظيم .
ـ معجزة .
ـ بسم الله ما شاء الله .
ـ مبروك علينا يارجاله .

وكان صبحى الصيدلى أقرب ما يكون الى الحاج حينما استدار الحاج نحوه ليسأله :

ـ ايه رأيك يا صبحى ؟

وفى لحظة خاطفة أخرج صبحى الطبنجه من جيبه ليقول له رأيه الذى احتفظ به من أربعين سنة . . وأفرغ فى قلبه رصاصة واحدة غادرة . . هذه المرة من الأمام وعلى شاشات التليفزيون . . وعلى مرأى من عشرة ملايين مشاهد . . ردا على رصاصة غادرة من الخلف قتلت أباه فى الظلام دون أن تراها عين . وسقط المجرم العتل يتخبط فى دمه . . بينما انطلقت عشر رصاصات من الحرس لتصل الى صدر صبحى . . ولكن بعد فوات الاوان . . فقد كان قد بدأ يموت ميتة طبيعية بسبب نزيف الورم المخى . . وكان يضحك .

ومات صبحى قبل أن تصل الى قلبه الرصاصات العشر .

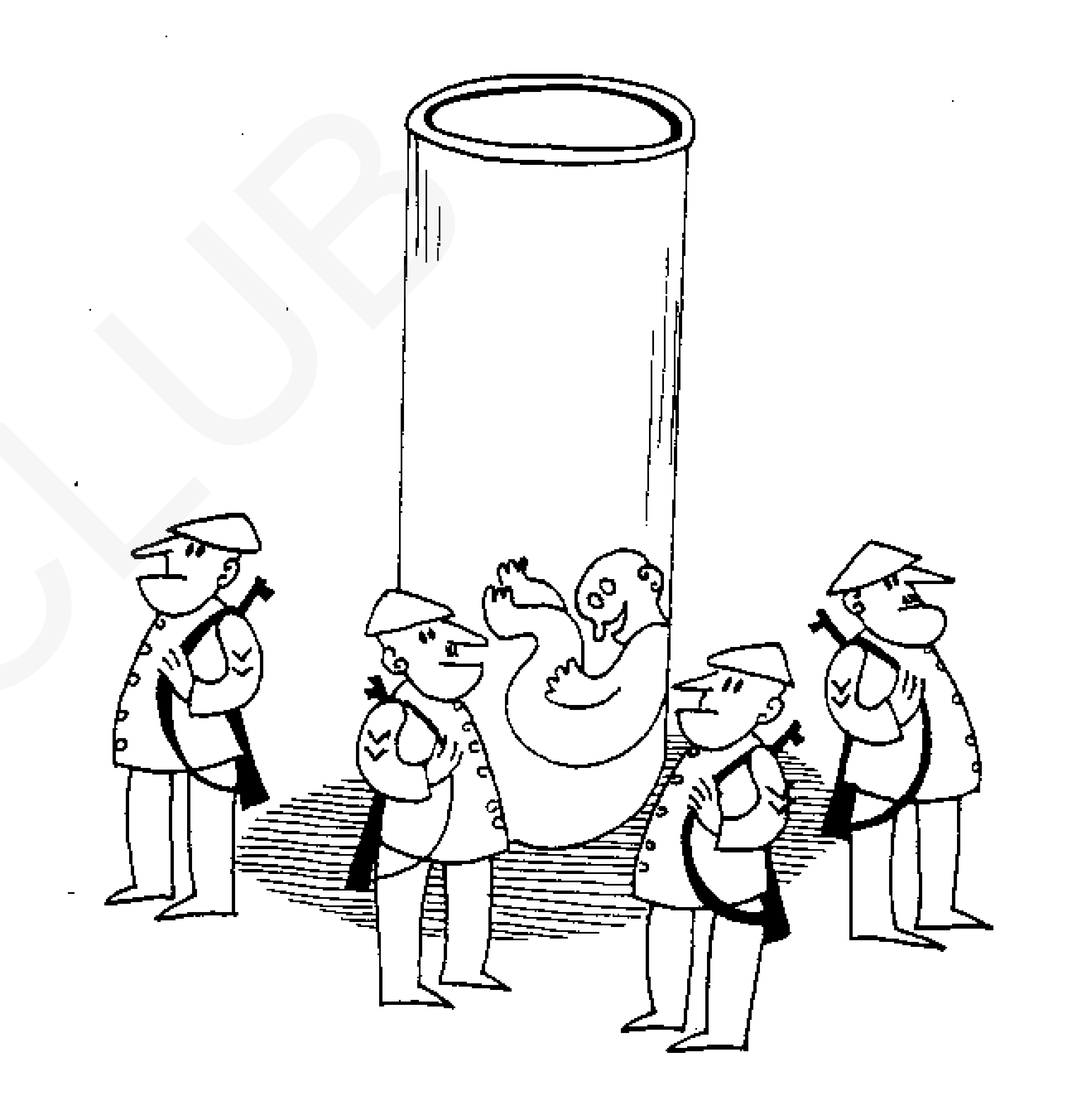
مات وهو يضحك .

كان يضحك على جريمة أخرى ارتكبها الحرس بلا جدوى . . فقد قتلوا هذه المرة رجلا ميتا وحملوا اثما دونما داع . . فقد سبقهم السرطان وأعفاهم ولكنهم أصروا على الاثم . . ومثلوا بجثة رجل ميت . .

ولهذا كان يضحك .

وكان الميت الوحيد الذى ذهب الى قبره وهو يضحك .

وقد استراح ضميره . . فقد صنع شيئا . . فى اللحظة الأخيرة . . قبل أن يسدل الستار .



حكاية طفل أنابيب

رغم ان اجراء التجارب على الأجنة البشرية أمر محظور . . الا أن توفير الرقابة على كل أنبوبة اختبار واقامة الحراسة على كل ميكرسكوب أمر مستحيل . . فلم يبق الا ترك الأمر لضمير الباحث . . وصاحبنا كان ضميره مستريحا جدا وهو يقوم بتشريح البويضة البشرية المخصبة ليفصل منها بعض الجينات وليضيف جينات أخرى . مما سوف يؤدى فى نظره الى ميلاد جنين متفوق . . سوبرمان . . قادر على تغيير التاريخ . . وانقاذ العالم .

ولنتعرف على بطلنا أكثر . . هو الدكتور ناجى . . دكتوراه فى الهندسة الوراثية من أدنبره وأول دفعته فى كل سنوات الدراسة وعالم بالفطرة . . وزوجته كاثى التقى بها فى انجلترا وتزوجا من سنوات وعاد بها القاهرة وأصبح مديرا لمعهد الأبحاث واستقر به المقام فى شقة أنيقة على النيل ما لبث أن حول بعض غرفها الى معمل يسهر فيه طول الليل وأحيانا ينام فيه .

وزوجته التى لم تنجب أسلمت له نفسها ليستخرج من بطنها بضع بويضات بالمنظار يلقحها صناعيا على أمل انجاب طفل أنابيب .

وما لاتعلمه الزوجة أنه كان يأخذ البويضات ويلقحها صناعيا ليجرى عليها تجاربه وليس ليزرعها فى أنابيب . . فما كان يشغل باله أن يكون له ابن ، بل أن ينجب السوبرمان الذى ينقذ العالم . .

وما لم يكن يعلمه الزوج أيضا . . أن زوجته وقد يئست من الانجاب ويئست من انشغاله عنها طول الوقت فى معمله . . قد وجدت من حقها بمنطقها الأوروبى أن يكون لها أكثر من عشيق فى محاولة مشروعة (من وجهة نظرها) للانجاب بتلقيح طبيعى ، وأيضا فى الترويح عن نفسها من عناء الوحدة التى تعيش فيها .

وقد استراح الاثنان الى هذه السلوكية التعويضية ،وكان كل منهما يدور فى فلكه وفى دائرة اهتماماته المختلفة عن الآخر . . دون أن تتقاطع الشوارع التى يسيران فيها ، ودون أن يتدخل أحدهما فى خصوصيات الآخر . . ومضت بهما الأيام تترى فى هدوء .

والليلة كانت ليلة خاصة جدا جديرة بالاحتفال . . فقد استطاع الدكتور أخيرا أن يوفق فى تركيب الجنين المثالى المطلوب . . من توليفة مُثلَى من الجينات .

أخيرا أمكن تخليق جنين من جينات متكاملة يمكن من وجهة نظره أن تؤدى الى السوبرمان المنتظر .

كانت اذن ليلة جديرة بالاحتفال .

وفرقعت زجاجات الشمبانيا على الطريقة الأوروبية ، وارتفع صوت الستريو ودوت ايقاعات الديسكو الصاخبة . . وتخاصر الزوجان يرقصان . . وكان كل منهما يفكر بطريقة مختلفة . . كان هو يحلم بالخطوة القادمة . . أن يزرع هذا الجنين فى أنبوبة ثم يحقنه فى رحم زوجته . . ثم ينتظر تسعة أشهر . . ليعلن ميلاد السوبرمان . .

تسعة أشهر هى كل ما تبقى الآن على مجىء منقذ العالم . . هكذا كان يحلم . . وهو يرقص . . أما الزوجة كاتى فكانت تحلم بتسعة أشهر أخرى من نوع أجمل . . تسعة أشهر حمل طبيعى من الرجل الذى أحبته وعشقته . . بطل الكاراتيه . . الذى كان يصرع أقوى رجل بدفعة من كف يده . . كانت تحلم بذلك الجنين النادر الذى سوف يجمع بين جمالها الانجليزى الساحر وبين رجولته الشرقية الساحقة .

وكان كلاهما سعيدا جدا على طريقته .

وجمعهما الفراش آخر الليل . . وكل منهما يحلم على طريقته فى حضن الآخر .

وبعد يومين لم تمانع كاتى فى أن يحقن زوجها جنين الأنابيب فى رحمها بالمنظار . .

فلا مانع من أن تكون عندها فرصتان . . فرصة فى انجاب بطل وفرصة أخرى فى انجاب سوبرمان . . ولن يكون الحمل مثيرا لأى شبهة . . فهناك سببان الآن لأن تلد مولودا بعد تسعة أشهر بعد أن تم التلقيح بنوعيه .

كان كلاهما سعيدا جدا بمشروعه .

وفى المعمل بدأ الدكتور ناجى يعد الدقائق والساعات وهو يراقب مزرعة أجنة السلامندر . . لقد أمكن أخيرا أن يحصل على نسخ متماثلة من جنين واحد من أجنة السلامندر بالانقسام . . وأصبح الجنين ينقسم الى اثنين ثم أربعة ثم ثمانية ثم ستة عشر ثم اثنين وثلاثين . . الخ . . الخ . . وبالتالى من الممكن الحصول على ألوف النسخ من حيوان واحد

ولو أمكن استنتساخ الجنين البشرى بهذه الطريقة . . فإنه سوف يمكن الحصول على ألوف الأجنة المتماثلة . . بما يعنى تخليق جيش من ألوف الجند المتماثلين فى الصورة والهيئة والقوة واللياقة لغزو العالم . . وصناعة كل هذا فى معمل .

وماذا لو أمكن استنساخ جنين السوبرمان الى جيش من الرجال العمالقة . . انه يكون شيئا كروايات الخيال العلمى ، ولكنه مازال حلما مستحيلا . . لأن الجنين البشرى لا يتصرف كجنين السلامندر ولا ينقسم الى نسخ متماثلة بالبساطة التى ينقسم بها السلامندر .

هناك فجوة تطورية بين الاثنين لاتسمح بهذا التماثل .

وسيظل هذا الاستنساخ (CLONING) حلم العلماء ربما لسنين . . حتى تحل شفرة التطور نفسها . . وهذا أمر بعيد .

ولكن الدكتور ناجى كان أكثر تواضعا فى مطالبه . .

انه يحلم بصناعة نسخة واحدة . . ومولود مثالى واحد .

وقد قطع شوطا بعيدا فى تخليق تلك النسخة .

ولم تبق الا تسعة أشهر . . تسعة أشهر فقط . . ٢٧٤ يوما . . ٦٥٧٦ ساعة . . ٣٩٤٥٦٠ دقيقة . هكذا راح يعد على اصابع يديه . . وكم

كانت تبدو له حركة الزمن بطيئة سلحفائية .. تتحرك فيها الدقائق كأنها سنوات .

وأسعد الزوجة كثيرا أنه أصبح أكثر التفاتا الى راحتها ومطالبها وطعامها وشرابها .. وان كانت تعلم أن السبب هو السوبرمان القادم وليس الحب الزوجى الذى عاد فجأة .

وكان يسعدها أن تراه يتحسس بطنها التى بدأت تعلو ويضع عليها سماعة الجنين من وقت لآخر محاولا أن يلتقط دقة قلب شاردة .

وكانت تضحك وهو يدغدغها .. وتقول له :

يا زوجى العزيز لاتستبق الحوادث ان كل علمك لن يستطيع أن يضغط التسعة شهور فى تسع دقائق .. حتى ولو كنت فى عبقرية أينشتين

والحق أنه كان يتمنى بالفعل أن يضغط التسعة أشهر فى تسع ثوان ..

ولكن ما باليد حيلة .

ولكنها كانت مناسبة لطيفة يعود فيها الى القرب من زوجته ويعود الى العناية بها ويذوق مرة أخرى ذلك الدفء الأنثوى الذى حرم نفسه منه بالغرق فى معمله .. وقد اكتشف فعلا أنه يحب زوجته ويعشق فنونها الأوروبية فى التودد والغزل .. وكان يهمس فى نفسه متعجبا لحاله .. ما أغرب هذه المخلوقات التى اسمها النساء وما أعجب ما أودع الله فيهن من قدرات .

ومرت الشهور .. وفضوله يزداد شهرا بعد شهر .. وحماسه يشتعل .. وصبره ينفد .. وتربصه يضنيه ويرهقه .

حتى جاء الميقات المعلوم .

وكان قد أخذها الى المستشفى .. واختار لها أكبر أطباء التوليد .. وجمع حولها النطاسين البارعين فى كل تخصص .. واستكمل كل الفحوص المعملية .. وكل زوايا التصوير بالأمواج فوق الصوتية .. والأشعة المقطعية ..

وكان كل شيء يقول أن الولادة طبيعية .. والجنين وضعه طبيعى ..

وسوف ينزل برأسه طبيعيا بدون حاجة الى أى مساعدة جراحية .

وقد نزل بالفعل طبيعيا .

وتمت الولادة فى هدوء غير عادى ..

ولم تسمع للوليد الصرخة العادية لكل المولودين .. وانما نزل فى صمت مريب واستغرق وقتا طويلا من الأطباء ليبدأ أول شهقة .

وحينما انحنى عليه الطبيب وراح يصفر فى أذنه اكتشف انه لايسمع ..

ونزل نوع من الوجوم على الأطباء .

كان من الواضح أن المولود متخلف .. وأن به عيوبا خلقية .

وكان من الصعب اختبار الابصار .. لأن ابصار الجنين يأتى متأخرا .

ولكن بعد أيام تأكد للأطباء أن المولود لايبصر .. وأنه ربما لن ينطق أيضا . ونزلت هذه الكوارث على الأب نزول الصاعقة .. واتهمته الأم بأنه تسبب فى هذه العيوب الخلقية للجنين بهذا العبث الصبيانى الذى كان يجريه فى معمله على البويضة المخصبة باسم العلم وباسم الهندسة الوراثية الفاشلة التى لايفهم فيها شيئا .. وأنها كانت فأر تجارب هى وابنها .. وانها ضاعت هى وابنها ضحية الجهل والغرور .. وأن ما فعله زوجها كان جريمة .

وتحول البيت الى مأتم وشجار وعراك متواصل .

وكان الدكتور فى حيرة ويأس واحباط .

وكانت تراوده فكرة ثابتة .. أن هذا المولود المتخلف لايمكن أن يكون قد جاء من الجنين السوبرمان الذى زرعه فى الرحم .. والذى رباه وسهر على تخليقه وكان يغذيه بالفيتامينات والهرمونات ويرعاه على عينه حتى بدأ ينقسم .

مستحيل ..

وكان هناك اختبار يمكن أن يحسم الاشكال .. هو تحليل للدم لمعرفة فصيلة الكريات الحمراء وأيضا الفصيلة النسيجية للكريات البيض للمولود .

ولم يتردد .. وقام بسحب بضعة سنتيمترات من دم الوليد .

وسهر على اختبارها .

وكانت المفاجأة .

لم يكن المولود من الجنين الذى زرعه . . وبالتالى لم يكن صناعته ولم يكن ابنه !

ومرة واحدة انقلب الدكتور ناجى خريج أدنبره المهذب المثقف . . الى الرجل الصعيدى ابن قنا الذى يغلى دمه بالغيرة ، واقتحم غرفة نوم امرأته ليرميها بتهمة الزنا والخيانة الزوجية وهو يخور كثور هائج ويرتجف من رأسه الى قدميه .

وواجهته ببرودها الانجليزى الشديد .

ولبثت تنظر اليه فى دهشة وتعجب لحاله المقلوب ولا ترد .

ثم قالت فى هدوء ثقيل :

ـ نعم هو ليس ابنك .

ـ وتقولينها ببساطة . . وانت خائنة ؟!

ـ لم أكن وحدى التى أخون . . فأنت أيضا فى معملك كنت تخون مهنتك وكنت تقوم بعمل محرم . . كنت ترتكب جريمة العبث بهذه الأجنة البشرية . . وكنت تفعل ما هو أشنع من الزنا ، لقد خنت شرف مهنتك بمثل ما خنت أنا عهدك . . وخيانتك كانت أفدح ، ولو بلغت الى الجهات المختصة سوف ترفت من عملك .

ـ اخرسى .

ـ لن أخرس .

ـ لن تجرئى . . لن تواتيك الجرأة .

ـ ولم لا . . انما ارد على وقاحتك بوقاحة مثلها .

ـ من أبوه . . قولى لى . . من أبوه . . وراح يهزها . . وهى تجيب بنفس الهدوء والبرود :

ـ هذا أمر لايهمك .

ـ كيف لايهمنى وسوف أربيه على أنه ابنى .

ـ لن تربية ولن أبقى دقيقة واحدة معك . .

وقامت لتخرج ولكنه دفعها بشدة وقد انقلب وحشا .

ـ لن تخرجى من هنا الا جثة .

ونظرت فى عينيه تبحث عن الرجل المثقف حامل الدكتوراه من أدنبره .

ولم تجد الا حيوانا كاسرا .

هل كانت كل هذه العلوم مجرد قشرة يختفى تحتها وحش بدائى .

ان هذه الأمور فى بلادها مسائل تافهة لايتقاتل من أجلها الرجال . . انها خلافات عادية تسوى فى هدوء . . وتنتهى بابتسامة لا مبالية .

كانت تشعر بصدمة .

ولم يكن هو بأقل منها صدمة .

لقد صدمه هو أيضا انه رأى فى نفسه كل هذا التحول . . وأنه نسى علومه ونسى سنوات أدنبره . . ونسى الثوب الاجتماعى المهذب الذى كان يرتديه . . وانقلب الى مجنون يرتجف .

لم يكن يدرك انه يحب امرأته بكل هذا الجنون ، وانه لا يستطيع أن يعيش بدونها لحظة .

كانت كاثى حياته .

وكانت خيانتها مقتله .

هكذا بكل بساطة الرجل البدائى .

وكان ما يزال يهذى .

ـ من أبوه . . قولى لى . . من أبوه ؟!

وكانت الدموع تطفر من عينيه كأنه حيوان جريح عاجز يتألم.وكانت هى تشعر بدهشة واشفاق .

ـ ألا يمكن أن نؤجل الكلام فى هذا الموضوع حتى تهدأ وتسترد عقلك ؟ .

ولكنه كان قد فقد كل بقيه من عقل .

وكان ما يزال يهذى .

ـ من أبوه . . قولى لى . . من أبوه ؟!

ودق جرس الباب .

وقامت لتفتح .

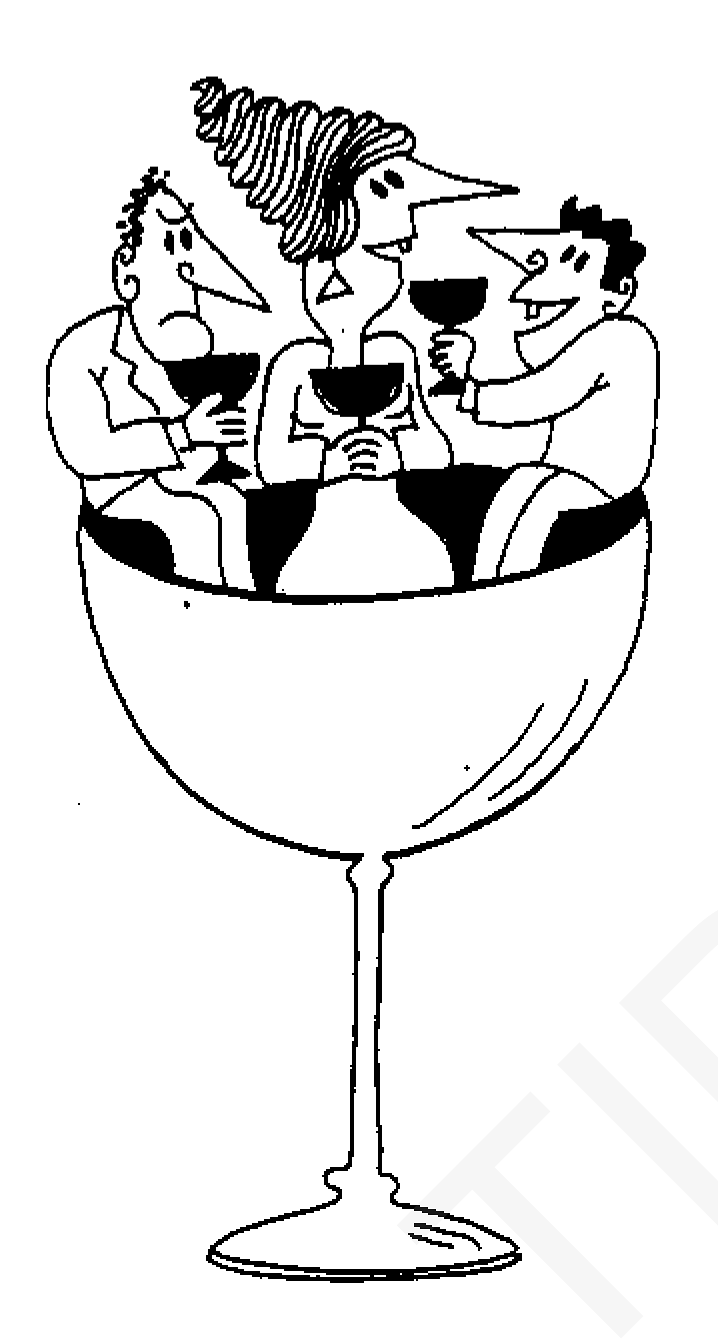
ودخل بطل الكاراتيه . .

وتبادل الثلاثة نظرات سريعة انفجر بعدها الزوج فى جنون :

ـ هل هو أبوه . .

وعاد الثلاثة يتبادلون النظرات . . وبدأ صاحبنا بطل الكاراتيه يفهم الموقف .

ولكن الدكتور كان قد قفز فى وحشية ليقبض عليه من رقبته ليخنقه .
وانكمشت كاثى فى ركن وهى ترتجف .
وفى محاولة يائسة للدفاع عن النفس قام بطل الكاراتيه بضربة حرفية هائلة القت بالدكتور يتدحرج على الارض ليصطدم رأسه صدمة قاتلة بحديد الدولاب ويفقد الحركة .
وانكفأ الاثنان على الرجل .
وراح الرجل يتسمع القلب . . ويتحسس النبض . . بلا طائل .
واحتضنت الزوجة زوجها فى حنان وهى تبكى وترتجف .
ـ يا حبيبى . . انها أمور تافهة جدا . . انها لم تكن لتستدعى كل هذا الجنون . . انها أمور تافهة . . لم فعلت كل هذا ؟ .
ولكنه لم يجب .
كان قد ذهب الى العالم الآخر .
لم يستطع أن يقول لها .
إن هذه الأمور فى بلادنا هى كل شىء .
واننا بدائيون . . مازلنا بدائيين ياكاثى .
لم يولد منا السوبرمان بعد .



الثلاثة

الثلاثة .. الزوج والزوجة والعشيق .

مسرح العواطف القديم الذى مثلت عليه أول رواية .

اختلفت الأسماء من عصر الى آخر ، واختلفت الأزياء واختلفت العادات ، واختلفت التقاليد ، واختلف الديكور واختلف المسرح .. مرة فى قصر امبراطورى .. ومرة فى كوخ .. ومرة فى كهف . ومرة فى غابة .. ومرة فى جبل .. ومرة على العشب .. ومرة فى الخلاء .

ولكن الرواية دائما واحدة.

وروايتنا اليوم على مسرح عائم .. فى قارب فى عرض البحر..

أما الأبطال الثلاثة فهم :

ماتيلدا الجميلة المشغولة بجمالها طول الوقت تخرج من الحمام الى الساونا الى التدليك الى الكوافير الى البيديكير الى المكياج الى الاسترخاء بين مجلات الموضة الى الخياطة الى محلات المجوهرات الى الكلوب.

كلمات الغزل روحها .. ونظرات الافتتان من الرجال وشهقات الغيرة من النساء حياتها .

فاذا افتقدت تلك النظرات أصابها الاكتئاب وشعرت بأن جمالها يذوى .. وأخرجت مرآتها الصغيرة وراحت تتحسس بشرتها خشية أن تكون قد زحفت اليها التجاعيد وأصابها الذبول .

وهى ترى نفسها محور الكون والكل طواف حولها .. وقبلة الصلوات .. والكل راكع ساجد متهجد مبتهل فى انتظار لفتة رضى .

وأبدا لا يرضيها شىء ..

وأبدا لايكفيها شىء ..

وكلما انهال عليها الاعجاب ازدادت عطشا لما هو اكثر .. وكلما جاءها الاكثر طلبت الاكثر .

وهو .. البطل الثانى .. الزوج الطيب الودود الكريم السخى الذى ينفق بلا حدود ويدفع ويسجد ويركع ويقوم بتكاليف هذا البلاتوه ونفقات قاعة العرض وفاترينة الجمال ومزاد الفتنة التى تتحلق حولها الانظار ويطوف العمار .

وهو يفعل هذا بلا مقابل

يفعله مقهورا مغلوبا بخضوع لايستطيع منه فكاكا .. فهو العبد .. كل حظه التطلع الى الوجه الذى لايلتفت اليه أبدا .. يحرق نفسه بلا عائد سوى أن يحرق نفسه أكثر .

والثالث هو صاحب الدلال وصاحب الأمر والنهى الذى يهون كل شىء فى سبيله وهو الحبيب المعبود الذى تسكب بين يديه العسل ليزداد بها التصاقا ، وتغويه ليزداد غرقا ، وتأخذه فى بحيرة العطر حتى يغمى عليه .

والثلاثة كما ذكرنا فى قارب فى عرض البحر .. فى ليلة بلا قمر .. فى نزهة بريئة .. ظاهرها برىء ولكنها فى حقيقتها نزهة مشروطة .. كانت قبلها مواثيق وعهود ودموع .

ان الزوجة الجميلة ماتيلدا قد ضاقت ذرعا بالزوج الذى يحيطها كما يحيط السوار بالمعصم ويخنقها مثل كمامة البنج .. وهو ثقيل ولزج وان يكن طيعا ودودا .

وهى لم تعد تطيق وجوده .. وهى تريد الخلاص .

وهى ايضا لم تعد تطيق تفلت هذا العشيق .. ولم تعد تطيق طبيعته الزئبقية .

وهى تريد مهرا غاليا لجمالها الذى تسلمه له كل ليلة .. مهرا تقيد به يديه ورجليه وحريته ..

ومهرها أن يقتل الزوج .. يلقى به فى البحر لتبلعه الأعماق .. ثم يعود بالقارب وفيه اثنان فقط .. هو وهى .. وحضن الدنيا لهما وحدهما الى الابد

مطلب قديم .. وقصة معادة

والقارب يوغل فى البحر ويوغل فى الليل ويوغل فى السواد .

وماتيلدا تعزف على جيتار فى يدها .. تلك المعزوفة التى يحبها صاحبها والتى تخدره وتنوم عقله وتوقظ حواسه وتحرك همجيته .

وهو .. فى قلبه صراع متقد من الخوف والرغبة والحب والكراهية والخضوع والثورة والعقل والجنون .. والعشق والتمرد .

معزوفة أخرى فى قلب العاشق يكملها الليل والصمت والسواد

والحمل الوديع الثالث مستسلم لقدره لا يفكر فى شىء .. ولايريد لنفسه الا ما تريده هى .

وينزلق القارب على صفحة هادئة كالزيت الناعم الأملس بلا صوت ، وتطل على المشهد عيون علوية من آلاف النجوم تبدو كأنها تثقب القبة السوداء كحدقات ماسية تتلألا .

لا صوت سوى أصداء الجيتار .. والضرام الذى يشتعل فى قلب العشيق ، والأوار والسعار اللذين يتفجران فيصكان أذنيه .. دون أن يسمع أحد من بركانه الداخلى شيئا .

وتلقى ماتيلدا بنظرات كالجمر نحو صاحبها فتزيد الأتون النفسى فى داخله اشتعالا .

وتتفاعل الغرائز لتؤدى الى انفجار متسلسل تتفاقم قوته حتى يصل الى ذروة .. فيهجم العاشق فى اندفاع مجنون ليفعل شيئا غير متوقع بالمرة .. يلقى بالمرأة التى يحبها فى عرض البحر بدفعة واحدة من يده !

ونسمع صرخة تغطى على كل شىء هى صرخة الزوج المفجوع ..

وإجابة باردة من الرجل عند الدفة .

ـ لقد اختل توازن القارب .. البث عندك .. لم يعد هناك حل .

ولكن الزوج لايسمع ولا يرى ولا يفهم ، وانما يندفع الى حافة القارب وهو يحملق فى الماء مذهولا .

وتغوص ماتيلدا الى الأعماق أمام عينيه فى لحظات .

ويلقى الزوج بنفسه وراءها لينقذها وهو أجهل الكل بالسباحة ، ويحاول الرجل الامساك به ولكنه ينفلت منه ويقع فى البحر ، ولايجد الرجل مفرا من القفز وراءه .

ويتلقفه من اللجة ويحيط به بقوة ويخرجه وهو يلهث ليلقى به فى بطن القارب فاقد النطق .

ويعود القارب يتهادى فى النهر الأسود بلا قمر . . وقد عاد باثنين فقط كما أرادت ماتيلدا . . مع فارق بسيط . . أنهما رجلان . . أحدهما فاقد النطق . . والآخر . . العشيق يتنفس الصعداء ، وكأنما انزاح عن صدره حجر .

أخيرا أصبح حرا .

هكذا يفكر .

ما أجمل الدنيا بدون قيد .

ما أجمل الدنيا بدون ماتيلدا .

ويتلفت حوله كأنما يرى الدنيا لأول مرة . . وكأنما كان تحت الماء ، وأخرج رأسه فجأة فبدا له مشهد الدنيا جميلا جديدا فى كل شىء . . وكأنما كل شىء يحتفل به .

أخيرا . . قهر نفسه .

● الفهـــرس ●